obeikandl.com

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

أُلهم فأكتب .....

وأكتب لألهم .....

وأنا وقارئي فكرة في ضمير

الانسانية

تتحول بالصدق والصراحة إلى

قطرة دم في قلب الوجود

تنعثه من العدم إلى الخلود

جميله العلايلي

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

عندما عرفتها

ابنتى جميلة

يسرنى أن ألقاك يوم الخميس القادم عصرا لحضور حفلة الشاى التى أقيمها فى منزلى بمناسبة تشريف صديقة عزيزة علىّ جاءت من بلاد العرب لتغيير الهواء، وسوف تسرك هذه الزيارة حيث تفتح أمام ناظريك آفاقا جديدة من المعرفة والفكر وتلهمك أجمل الخواطر.

ياعزيزتى الصغيرة

حذار من التأخير إذ كل مصادفة تحمل فى ذيلها بعض حقائق الوجود

وإلى اللقاء

أمك

زينب

obeikandl.com

جاءتنى هذه الرسالة من سيدة محترمة لها فى نفسى مكانة وكانت دعوتها اللطيفة بما فيها من غمزات غامضة أكبر باعث على تلبية دعوتها .

جئتها فى الميعاد فوجدت ظواهر البهجة بادية فى كل مكان بالبيت وقد أبدعت فى تجميل الصالون وغرفة الطعام على الأخص ، حتى خيل إلى أن بالمنزل عرسا وشاءت السيدة أن تفاجئنى به . . لكى تخلق من المفاجأة قصة طريفة أصور فيها عرسها لأنها كانت مغرمة بأن اتحدث عن حياتها لاعتقادها أنها المثل الأعلى للمرأة المصرية المستنيرة.

قدمتنى للزائرات وهن خليط من السيدات والآنسات ، المتعلمات والجاهلات ، المحافظات والمتطرفات ، المتعجرفات والمتواضعات .

ولفت نظرى سيدة عليها طابع عجيب من الجاذبية المتجسمة فى لهجتها التى تشبه هدير الحمام ، وفى نظراتها التماع يبعث الطمأنينة فى نفس من واجهها ويحمله على الصمت ليمتزج برقتها فيشعر أخيراً أنه خلق خلقا جديدا .

على أننى لم أجرؤ أن أنظر إليها كثيراً خوفا من أن تتهمنى بالفضول ، كان فيها قوة تدعونى للتطلع إليها ولكن حيائى كان يرد طرفى فى ذهول وظللت هكذا أنظر إليها آنا واستمع إليها أحيانا ،

وهى لا تتكلم إلا نادرا ، وإذا تكلمت اشرأبت الأعناق إليها كأن صوتها نغم يترامى من وراء الأبعاد كحمامة وديعة بصمتها وهديرها ، وبعد لحظة مالت على فتاة تعرفنى هامسة فى أذنى هذه السيدة الأعرابية أصلها مصرية ، فدهشت وحملقت فيها متسائلة كيف تكون أعرابية ومصرية قالت : لها قصة عجيبة ، لا يعرفها أحد ، وإن قدر لك وعرفتها عرفت تاريخ الجباة كلها فى شخصين أثنين .

فملت عليها متوسلة راجية فوعدتنى أن تقص على حكايتها إذا زرتها فى منزلها بالحدائق .

وهنا دخلت الخادم وهمست فى أذنها « التليفون يطلبك »

فأستأذنت الفتاة وخرجت وأنا أشد ما أكون شوقا لتعرف حكاية السيدة الأعرابية أو المصرية كما تقول الفتاة .

لم تخمد رغبتى لتعرف الحقيقة لأنصراف الفتاة بل تجسمت حتى شغلتنى عن كل ما يحوط بى — ما معنى — أعرابية أصلها مصرية !!

بدت هذه الكلمات ملتمعة وضاءة كحروف من النور ، أمام ناظرى . . وبدأت أفسر اللغز الذى جاء فى خطاب السيدة . إذن لا بد فى الأمر سراً ! ! . .

ولكن كيف أعرف الحقيقة ؟ ؟ . .

واهتديت إلى أمر قد يصلح حلا عندما دخلت الخادم لتقدم

إلينا القهوة قلت :ـ متعمدة لكى أسمع الأعرابية صوتى ـ من تريد أن أطالع فألها ؟

فنظرن إلى قائلات : كلنا . وكان صوت السيدة أعذبهن بهدوئه فابتسمت ودنوت منها بعد أن أخذت من يدها الفنجان محدقة فى قاعه كأن به كلمات يمكن قراءتها . مختلسة النظر اليها من تحت أهدابى لأستعين على تعرف حقيقتها بالمعانى المرتسمة على وجهها فى شبه ظلال تبدو كـكلمات مقروءة للذهن النابه ، وفى هذه اللحظة فقط أدركت أن مهنة الدجالين ، هى فراسة فطرية ـ لا أكثر ولا أقل ـ يستخدم فيها الدجال عقله وذكاءه ليدرك ويفهم . . .

وفعلا خيل إلى أننى اكتشفت خبيئة صدرها عندما لمحت ظاهرة الخوف تبدو على شفتيها فى شبه ارتعاش كأنها تخشى أن أقول شيئا أمام الحاضرين . . وذاك الشىء لاتحب أن يعرفه سواها ، ثم ظاهرة اللهفة الملتمعة فى عينيها لتعرف شيئا تنشده وتبتغيه .

اتسعت أمامى سبل القول ، ما عساى أن أقول والكل صامتات متلهفات مترقبـــات قولى كأننى كاهنة تنزلت عليهن من السماء لو سألوا كل إنسان ماذا تريد ؟ لقال أتمنى ، وأتمنى . . ولن تنتهى قصيدة أتمنى إلا بانتهاء الأجل والرغبة التى تدفعه لمعرفة ما وراء الغيب هى بريد معجل لتحقيق الأمانى . رفعت إليها وجهى وقد

تكلفت الجد واكسبت لهجتى نغمة اليقين الأكيد وقلت — مشيرة بطرف أصبعى إلى الرسوم الظاهرة فى قاع الفنجان وهى حلقات متداخلة متلاصقة :

هذه سلسلة حبائل كلها أقاصيص عجيبة ولدتهـا قصة واحدة غريبة غامضة ! ! !

فضحكت ضحكة خلتها حرارة اندفعت من قلبها لتستقر على شفتيها منغمة فى حياء لايمكن ان يلازم إلا امرأة الباديه ثم تمتمت :

هيه ! . . .

فاستطردت : وأنا اتأمل عينيها وأنتقل منهـا إلى داخل الفنجان مشيرة إلى رسم شجرة جذرها فى ناحية . وفرعها فى ناحية أخرى :

ياعجبـا . . . ولدت فى بلد كمصر مثـلا وعشت فى غير وطنك ، هكذا يبدو لى ؟ . . ونظرت إليها استشف من وراء ملاحها مايعينى على إتمام تفرسى .

فدهشت وقالت : وما دليلك ؟

قلت : وسوس إلى خادم الفنجان .

فضحكن جميعا وارتفعت اصواتهن . . اسرعى اتمى وقالت احداهن . . انا بعدها واعقبت اخرى — لا ، وانا لأننى على موعد وأريد الانصراف توا

فأشارت إليهن ليصمتن ونظرت إلي لأتابع حديثى ، قلت . .

أصدقيني أليس ما قلته حقا فهزت كتفيها ومطت شفتيها وغمغمت ربما . . . أتمنى

فتخابثت وقلت . . إذن لا ضرورة للافصاح لك . . سأنظر وأعرف سرك وحدى فريعت وقالت . . أوه قولى كل ما عندك ؛ فغمزت إليها بعينى وقلت بصوت مرتفع ليبلغ مسمع الجميع . . خادم الفنجان انسحب . بلغت الساعة السادسة — إذن — إلى يوم آخر

فتجهمت الوجوه ورمقتنى العيون بنظرات الغضب ... فتعاميت وتكلفت إبتسامة وأنا أقول . . تسلية . . . كل ما أتمنى أن تطول .

ولم تستطع السيدة أو الأعرابية صبرا فوقفت وقد نظرت إلى بمعنى انبعينى وخرجت وفى الواقع أفرحنى هذا التصرف لأننى أريد أن أستغل الخلوة بها لتعرف سرها .

ولما لحقت بها بعد برهة دون أن أشعر الحاضرات — جذبتنى فى لطف قائلة فسرى لى كل شىء فى الفنجان ، ما يؤلم وما يفرح ؟

فحلالى مداعبتها فقلت متما كرة . . الخادم انسحب .

فتمتمت وقالت . أرجوك ؟ . . .

قلت . . روحى فدا هذا الرجاء . . لكن لى عندك أنت رجاء

قالت : مرى

قلت : لا تكتمى عنى الحقيقة التى أصورها لك

قالت : قبلت

قلت : إذن تعالى نجلس بعيدا عن الأنظار وتأبطت ذراعها ثم تسللنا فى هدوء حتى بلغنا الحديقة فاسترحنا تحت خميلة بديعة منسجمة . ولقد بانت فى هذه اللحظة كل عواطفها مرتسمة على وجهها بظلال وضاءة تكشف للرائى حقيقة قلبها الحى الخافق عاطفة ثائرة يشملها الرضا والأمن والهناء الأكيد وشاعت العظمة النفسية على كيانها فاشعرتنى بالرهبة وخلتها حقيقة مقدسة يجب أن تظل بعيدة عن خيالى المجنون حتى لا يشوه جلالها .

ولكن رغبتى فى تعرف حقيقتها كانت أكبر من رهبتى . .

قلت . . خلفك تمثال أبى الهول وأمامك صحراء فسيحة ثم نظرت إليها خفية لأرى تأثير كلامى عليها .

فهزت رأسها دهشة قائلة :

وما معنى ذلك ؟ ؟

قلت : معناه انك ولدت فى مصر

فضحكت ضحكة كهربتنى كأنها شـــدتنى إليها بسلك مكهرب وقالت : لست افهم مرماك . .

فلت : أوه . . يحتمل . . إذا كنت تتغابين ؟ !

فابتسمت فى مرح وتمتمت . . . ثم . .

فتظاهرت بالعجز وقلت : فى الواقع سرك غامض . . غامض

جداً . . كأنك حكاية لابداية ولا نهاية لها . . . ثم ارخيت ذراعى بالفنجان واستطردت :

حضرتك لست من هنا كما تقول السيدة زينب هانم

قالت : أجل

قلت : ولكن طبيعتك تكذب لهجتك ، كأنك مصرية

قالت : بدون ان تتعثر فى لهجتها العربية الفصحى : بل عربية

فهززت كتفى علامة الشك وقلت - لايمكن ان أصدق ذلك . . أبداً . . أبداً . . معانيك عنوان لقصة جمعت فى فصولها تاريخ الحياة كلها كتبت حروفها من نار العقل ونور القلب . .

وفى الواقع ياسيدتى . . أرى الانسانية كلها بحقائقها وأخيلتها وألمها ووحشتها مجسمة فيك

فربتت على خدى فى حنو تسرب معناه إلى قلبى حتى أحست ان المسافة التى مرت من عمرى قبل ان اعرفها قد قربت حتى باغتتها هذه اللحظة واوثقتنى بها وثاقا لا انفصام بعـــده واظنها أحسست بهذا الاحساس لأنها مالت على كتفى فى عطف ونظرت إلى الأفق البعيد ثم تنفست الصعداء وتمتمت كأنها تخاطب الأفق دون ان تحول نظرها . . ترى كيف انت الآن ياحبيبى فمر بذهنى عدة صور منوعة للشك

إنما طهرها كان أجلّ من ريبتي فلم أندفع وراء ذلك التيار والتفت إليها قائلة . . فى أى بلد تقطن الهانم

قالت ـ اسمى . . سناء . . واريد ان اسمع هذا الأسم دائما ليعيد على سمعى نداء زوجى الحبيب . .

قلت اسم جميل . . حقا ـــ سناء ـــ ما أعذبه وأين زوجك ؟

قالت ـ هناك فى البلد . . لم يستطع ترك بلده لخطورة المسئولية الملقاة على عاتقه فى هذه الأيام ، وقد يجىء بعد شهر ليصحبنى أثناء عودتى كما صحبنى اثناء مجيئى

قلت ـــ لكأن زوجك حاكم

قالت ـــ شبه ذلك

قلت ـــ وكيف هان عليه تركك ومثلك لاتطيب الحياة بدونها

فابتسمت فى دل وخفر وتمتمت . . كم أنت لطيفة .

قلت ـــ حدثينى عن بلادك العربية الجميلة

قالت ـــ لا تبالغين . . فأنت كما قالت لى صديقتى ربة الدار شاعرة أديبة

قلت ـــ لقد خدعتك !..

قالت ـــ وهل يمكن أن يخدعنى حسى وإدراكى . . هكذا أراك

قلت ـــ إذن حدثينى عن بلدك علنى أخلق من عالمه دنيا حافلة بالحياة المحببة . . .

فصمتت مليا ثم قالت - سأقص عليك قصة فى مقدورك تسجيلها بروحك قبل قلمك ثم قدميها للانسانية تحية معطرة منى

فطربت وهللت وقلت — أو لم أقل لك أنك قصة الحياة صاغها الاله فى انسجام وجمال واستودعها امرأة هى أنت ؟؟ . . .

فلم تتكلم ورفعت رأسها فى تيه وحركت شفتيها فى بطء كأنها بدأت تفتح قلبها أيضا وقالت بصوت منغم ساحر هادىء كهدير الحمام .

* * *

وقت الرحيـــل

كنا جماعة من العذارى عن لنا السياحة فى الصعيد ترويحا للنفس وطلبا للدفء فى فصل الشتاء — وعادة — تحلو زيارة هذه البلاد الحارة فى مثل هذا الفصل البارد الماطر ، حيث تكاد تكون الشمس بمعزل عن بلاد الوجه البحرى كأنها غضبى متجنية — عكس هناك — أبدأ الشمس حانيه كأنها تحتضن ارض الصعيد فى حرارة تشعر الخلائق معها بالدفء والسرور على أننا تحيرنا فى اختيار البلدة المرجوة ، قال فريق منا . . . إلى الأقصر وقال فريق آخر . . إلى اسوان .

وبعد حوار ونقاش إتفقنا على ان نبدأ الرحلة بزيارة الآثار

التى نمر عليها مبتدئين بزيارة آثار البلينا ثم اسوان وعند عودتنا نعرج على الأقصر وقدرنا لهذه الرحلة عشرة أيام على الأكثر.

وكان عددنا يبلغ العشرين فتاة أو يزيد ، مختلفى السن والديانة والميول والطبائع - رغم تآلفنا الظاهرى - على ان كل واحدة منا لم تعدم رفيقة تماثلها فى المشارب وتوافقها فى الميول وتجد بجوارها كل ما ترتجيه من مرح ولهو برىء يعينها على الاغتراب إلى حين .

* * *

ركبنا القطار من القاهرة فى أمسية يوم من شهر فبراير سنة ١٩٣٦ ، وكان فرحى لاستطلاع الحياة الجديدة أقوى من شعورى الحزين لوداع الأهل والصحاب وفى الواقع إحساس الانسان رهين التأثير المباشر وكلما تنوع هذا التأثير قوى الحس لانتقاله من حالة إلى حالة وهذا الانتقال غير المباشر هو التجديد الخفى الذى يغذى الشعور الباطن ويحبب الحياة إلى الانسان رغم ما يناله فيها من مآسى وأحزان .

نحن نولد ونموت دون أن ندرك حقيقة ذلك ، نموت بالحس ونحيا به — وليكن الحس على أى صورة . . أنه هو اكسير الحياة على كل حال .

أعرف ذلك — لذلك كان احساسى غير احساس رفيقاتى ونحن

نتأهب للرحيل، نودع الأهل والمعارف ونستودعهم أحلامنا وأمانينا إلى حين . .

قد نعود وقد لانعود . .

هذا الظن كان يراود ذهن كل منا ومع ذلك فكلهن متفائلات ضاحكات عداى

فقد وقفت فى نافذة القطار أرقب جميع الناس بعينى روحى المشرئبة إلى إدراك خفايا نفوسهم — دون عمد منى — هو إحساس كما قلت لك يحاول دائما ان يتسرب فى كيان كل شىء ليصل بين الحقيقة المجهولة وبينى ، كأن شعورى . . قوة قادرة استودعها الله كيانى لتستقر فيه كلما تطلبت الراحة بعد طول جهاد .

وعلى ضوء هذا الإحساس البعيد عنى الخارج منى — رأيت الدنيا كلها بأفراحها وأحزانها ممثلة على « مسرح المحطة » عند قيام القطار ، والذى يشرف على هذه الجموع من علٍ يرى عواطف الإنسانية كلها مجسمة واضحة جلية وقد ارتدى أبطالها ثيابا لا يخفى على الباحث الحساس كشف ما وراءها إذا جرد الإنسان نفسه من شواغل الحياة المادية ونظر بشعوره وعقله إلى وجوه المسافرين والمودعين - يعلم حقيقة الخواطر التى تختلج فى نفوس الآدميين ..

المعارف التى كونتها المادية وأسمتها علما وثقافة ، وسايرتها المطامع والأهواء وأسمتها ظرفا وكياسة . .

وهذه العواطف المكتسبة بعد تمرين طويل ودراسة وافيـــة لغمزات العيون وارتعاش الشفاه وحركات واشارات الأطراف فى همسات لا يدركها غير المشار اليه .

ظواهر مدرسة المدنية الحديثه . . تتراءى عارية فى غير دثار .. تأثيرها عجيب حتى طغى على ــ انا الأخرى ــ إنما على صورة غير هذه الصورة المرئية فتحولت من ماديتى المحدودة إلى روح شفيف هفهاف استطاع ان يتقمص كل كيان أمامى فى خفة ومهارة ـ واخيرا عاد إلى كيانى الجامد فرد اليه رعشة الشعور المتيقظ ، فعرفت ما غاب عنى إنما دفعت الثمن من دموعى وبسماتى بكيت بعينى وابتسمت بشفتى ولم اكن كاذبة فى هذه ، أو متكلفة فى تلك .

فقد أحزننى بحق منظر أم تودع ابنتها وكأن شبح النوى المقبل أهال على بصيرتها تراب الألم المضنى . . فأرخت أهدابها على أسى مروع ، ولو أن حنان الأمهات تجسم وصار جسما لما كان غير جسم هذه الأم الحانية الحزينة .

أطل شعورها الدافق من عينيها فشاع النور على وجهها حتى بان

كجسم شفيف احتبس فى إناء بلورى يستره — وهو فى الواقع يظهر معناه فى حنان ، حنان الأم وحدها

من لى بقوة تعينى على تصوير ذلك الحنان وهو يخرج من فمها فى شبه كلام ! !

كانت عاطفتها أجل من المنطق فغلبته حتى ذابت الألفاظ فى فمها عندما همت بالكلام لتودع ابنتها . . .

أى جلال يحويه ذاك الصمت الرهيب صمت الأم عند ما تقول كل شىء بقلبها وتأبى الحقيقة السامية أن تخرج من شفتيها .

الأم وحدها ، رسالة الحب والحنان

فى عناية الله يا ابنتى . .

ألفاظ مألوفة .

ولكن هاته النظرات الساهمة والشفاة المرتعشة والأطراف المتقلصة والظلال المرتسمة على الوجه كأنها تتمم حديثها ، كل هاته الظواهر تكسب هذه الألفاظ معنى عميقا حاراً يجذب قلب الابنة من موضعه فى عنف فيه لطف وعناية ليرده أكثر قوه ومعنى . .

ظلت الدموع فى عينى وصورة هذه الأم مرتسمة فى ما قى وأنا أضحك لمنظر شاب متأنق يخال نفسه « رودلف » مصر

الوحيـــد استعان على خشونة الرجولة القويه بأدوات التجميل الحديث فاستبدل الكبرياء الرزين بالتخنث الرصين واللهجة الخشنة التى تفتح قلب الحسناء دون إنذار بالصوت الناعم الذى يقصيه عن المرأة التى تطمع فى الرجل — الذى يشعرها بضعفها لأنه أقوى منها وبأنوثتها لأنه يمتاز برجولته . .

وقف ذاك الشاب يودع حبيبته الحسناء وهى أمامه صورة من تماثيل المعارض لرواج الأزياء . . .

استطاعت بأدوات التجمل والتطرية أن تكون جميلة ولكنها لم تستطع أن تكون جذابة لأن يد الصناعة تلعب بالمـــادة . . أما الروح فلا يمكن أن تمسه . .

ومع ذلك فهى مسكينة مستسلمة تؤمن بذلك الشاب إيمانا مطلقا كما يبدو تبكى فى حرارة — وهو الشىء الجميل فيها — أجل ، صدقها فى عاطفتها حرك فيها كل خامل وأيقظ كيانها الميت فرأيتها أخيراً إنسانه .

كانت تستودعه قلبها وحبها حتى تعـــود وهو يستمع إليها فى تكلف عجيب كأنه يفهم وكان يزهو بينه وبين نفسه بهذه الدموع الغوالى ويوهمها أن الدموع انحبست فى ما آتيه من فرط مافيه

ويدير وجهه ليخفى ألمه ، وفى الواقع كان يديره ليختلس النظر إلى الوجوه الجميلة والأجسام الغضة التى يموج بها الرصيف .

وهو يجيد فن الكلام — كما يبدو — فقد سمعته يهمس فى أذنيها أناشيد الهوى المستعر أو على الأصح المصطنع

أى كذب ؟ وأى نفاق ؟ شمتهما فى حديثه .

والحسناء البلهاء الساذجة تبكى فى حرارة من قلبها حتى أحسست وأنا بجانبها ان كل جارحة فيها تهتف — أحبك — وحبست نظراتها فيه كأنها تحاول أن تلتهمه بعينيها لتظل صورته مرسومة فى أعماقها إلى الأبد . . .

أى هول . . عندما يتجسم الحب تجاه النفاق ؟ ؟ . .

أى هول عندما يتنفس الحب عبيرا فيجاوبه الكذب زفيراً

أى هول . . عندما تغض المسكينة الطرف عن كل جميل ، ولا يتعفف المحبوب عن التطلع حتى إلى الشىء الدميم

. هى تفكر ما عساها تفعل لتهدىء قلبها الواله وتتذوق الشهد صابا لفراقه وهو يفكر كيف يغرى الحسناء الواقفة على بعد أمتار منه . . . ولما تحرك القطار كادت المسكينة تفقد وعيها من فرط حزنها . . . بينا استدار على عقبيه فى هدوء وأشار بيسراه مودعاً وقد رفع يمناه ليشير إلى غادة أخرى لترافقه ! !

ثم هاته الزوجة التى لم تكد تودع زوجها وصغارها وداعا لا أشك فى صدقه وحرارته حتى تضطجع فى « صالون » تخالس رجلا بجانبها نظرات لا تستحى كرامتها من بذلها فى سخاء ، وأخيرا يتحادثان ويتنادران ، وذلك الرجل الذى يترك زوجه فى « صالون » ليجالس فتاة أخرى ولا يرعوى فيغازلها دون حذر وتأدب ورائحة الافتراس تفيح من فمه وضوء الرغبة يتطاير من عينيه كالشرر .

وهذه الفتاة التى لا يجهدها الضحك المتتابع والتى تجيد فن الغزل إلى حد ضاع معه الحشمة والخفر .

وأخيرا — أنا

جلست فى مكانى وقد جلس بجانبى الرجل الذى خطبنى راضيا فقبلته مرغمة وقد رغب أن يركب معى حتى الجيزة ظنا منه أن ذلك آية من آيات الولاء — وكذلك أنا !!

لا أخلو من الرياء أيضا !! ..

كنت أطمع أن اتزوج برجل أحبه الحب كله فاذا بى أقنع برجل لا أعرف إن كنت احبه أم لا . .

أعطف عليه وأحنو آنا ، وأتمرد وأقسو أحيانا ، وهو يفسر العطف بالحب ، والجفاء بالدلال ، سعيد بهذا وذاك . . .

نسيت وجوده وأنسرحت فيما رأيت . . . وقبل أن يتركنى قال :
عودى بقلبك كما هو . . .

فتصاممت وظللت ساهمة كالحالمة أرقب الأفق البعيد .
فعاد يقول فى شبه همس لا يسمعه إلآى .

أنا لا اخشى عليك من رجال الصيد ولكننى أخشى أن يملك الفن حسك كله فأفقد قلبك . .

فاعتدلت وقلت بلهجة جادة : ومتى ظننت القلب لك ؟

قال : دائما

فهززت راسى علامة النفى وعندما تأهبت لأقول له . لا ـ وقف القطار فاستطرد . استودعك الله . اكتبى دائما لأطمئن عليك وأذكرينى دائما . . وعودى على عجل وظل يأمر ويرجو وأنا واقفة أمامه كالحالمة

لقد أعانتنى الظروف على الرياء أيضا . . لو لم يقف القطار لقلت له . . لا . . ولكن الشيطان يحاول دائما التغرير بنا . ونحن الضحايا . .

ولست أدرى لم لم أقلها . . اخجلا ؟ . أم تأدبا ؟ . أم خوفا ؟ . أم بدافع الرياء الذى يطغى على حياتنا فى كل شىء بتأثير الأنانية لكى أظل محبوبة ولا افقد قلبا يحبنى .

الفصل الثانى

فى الطـــريق

بدأ القطار يجتاز طريق الصعيد كأنه الوحش الكاسر يجتاز مغارة مخيفة موحشة فى غير تهيب أو كأن بينه وبين القدر حساب ولا يريد أن يفوته الميعاد لئلا يخسر المعركة .

ودخل بنا القطار فى قلب الليل ، أى ليل هذا ؟؟ . .

كأن ليل الصعيد دنيا وحدها فى أفقها الحالك الساكن صورة مرسومة للغيب المجهول الذى يجذب الروح غصبا إليه باحثا عما وراءه ، إنما يؤنس وحشته هدوء فيه بشر لكن تصحبه الدموع ! ! وشبه مس رقيق ناعم يمر على الصدر بأصابع حريرية فيرهف الحس وينبه الذهن إلى شىء لا وجود له إلا فى الأحلام حيث تتطلع عيون الشعراء الملهمين .

ويا للانسان الرقيق المشاعر من أحلام الظلام بقدر ما فيها من وحشة فيها حنين هادىء يسرى فى النفس مسرى نور الفجر فى الليل البهيم ، يكسب الصدر أنسا كما يكسب السماء اطفا .

أبداً ما رأيت ليلا يصور غموضه عمقه كهذا الليل ، لكأنه بحر أمواجه جمعت من قطرات دموع أبناء السبيل اليتامى والمحزونين ، تكاثفت وانصهرت من فرط ما سيهم وحرمانهم وسجلت بالدموع قصيدة الحزن على صفحة الأرض فصار بحرا وعلى الشجر فبان ندى وعلى الأفق فبدا ليلا

طوانى هذا الليل فى برديه فتلاشت ذاتيتى ولست أذكر تماما ماذا دهانى عندما غمرنى الليل وطوانى — كل ما اذكره اننى فنيت بحواسى فى ذلك التيه المجهول المترامى الأبعاد — ولم انتبه من غفلتى السحرية إلا عندما بدأ الفجر ينساب من وراء الأفق كشعاع من النور الرائق انحدر من معين الأزل اللامحدود موزعة بحساب الرحمة الكبرى فاكسبت الوحشة انسا والخوف أمنا والألم املا ودبت الحياة فى كل ميت فانتعش واشرأبت الأرواح إلى الانتعاش البهيج .

وتنفس الشجر فاستيقظ الزهر وبدأ النسيم يرجع أغنيات السحر فاذا الكون كله مأخوذ مسحور بنشوة القبل الذى طبعها الفجر على كل مرئى ظهر .

كل قبلة صافية تبدو على الورق والزهر دون خفر كأنها غذاء الضعفاء العلوى والرضا السماوى تمنحه الطبيعة الحانية البارة إلى دناها فى بر وحنان تحيى ما أصابها من أباطيل الحياة وما أفسد الانسان

أى نور من الخلد يحبو الكون النائم الحزين ويعانق الحياة فى نشوة البر العميم — لاشك أنها يد الخالق الأعظم تمتد من وراء الغيب لتحيي الخلائق بنورها الوضاء وتبدل تشاؤمهم الى تفاؤل وهنـــاء .

لطالما تصورت وأنا أتابع نور القمر الساحر وهو ينساب برفق متمشيا فى شرايين الحياة العليا — أن ملائكة السماء كشفت الستار عن عالمهم السامى وما هذه الألوان والأضواء والظلال إلا فنون دنياهم تتجلى لنا فى غير كلام . .

الله وحده جل جلاله يدرك مراميها ومعناها . . أما نحن فلا نعرف غير ظاهرها ومسراها . . تسرى فى حياتنا ولا ندرى مداها

ولو أن الانسان اتسع أفق تفـــكيره باتساع هذا الأفق لضاع سدى .

اكتشفنا وأخترعنا ولن ينفد معين الاكتشاف والأختراع ، ما دامت الطبيعة محتفظة بأسرارها حريصة على غموضها وسوف تظل كذلك ما دامت الأرض والسماء يعيش بينهما الحيوان والنبات .

كثيراما انغمس بكليتى فى مشهد من مشاهد الطبيعة بعواطفى وتفكيرى حتى أشعر اننى فقدت نفسى وفنيت فى ذلك المشهد وأخيرا أحس

بأن خاطرة جديدة تتجسم حتى تصير شيئا له قيمته تستقر فى عقلى آنا فأسميها فكرة وتعيش فى قلبى أحيانا فأسميها عاطفة وقد يجتمعان ويصبحان قوة لها فى ذهنى قرار وفى عاطفتى استقرار، فاذا بى تبدلت من نفسى التى أعرفها إلى نفس جديدة لا أعرفها فاضطر إلى مسايرتها واختبارها حتى أشعر بأنها — أنا — إنما خلقتنى الطبيعة خلقا جديدا بتأثير إلهام جديد، وعلى ألف صورة تخلقنى الطبيعة فكثيرا ما تبدلت بحسى المرهف من آدميتى البشرية إلى نسمة ندية وخرجت بذاتى المحدودة إلى جسم شفيف نورانى استطيع معه أن أجوب الآفاق واعيش وراء السدم كأننى من أبناء السماء ووالله — لو جاز لى أن أطلب من الله ان يخلقنى شيئا آخر لما اخترت إلا أن أكون نسمة ندية من نسمات الفجر تحيى موات النفس الخاملة أو لمحة من لمحات الضوء تثير بواعث النشاط الحى — لوجاز ! ! . .

ولكن هيهات ! . .

دائما نتمنى — والتمنى حلقه الصلة بين الانسان والحياة — وسوف نظل نرجو والحياة تعدو !

قلت لك لقد غفيت ، ولقد ظللت كذلك حتى نبهتنى رفيقتى قائلة : ياسناء — طلع الفجر

فابتسمت قائلة : لمحته عندما انتعش الزهر

فتنفست صاحبتي الصعداء كأنها تحمد الله لزوال الليل وقالت: الطبيعة هنا بالغ الله في تكوينها، كأنه بدأ يخلق الصعيد فأودع فيه كل فن عجيب ... لم يخفني ليل كهذا الليل ولم يبهجني فجر كهذا الفجر قلت — أي والله — على رضوان فتح نوافذ الجنة فبدا ذلك النور الساحر الذي نسميه فجرا

بعد أن تغتسل الحياة من أدران المجتمع وتتطهر من أضاليل الوجود تظهر بثوبها الشفيف وروحها الطاهر الأصيل مسبلة غلالة الطبيعة السمحة الرائعة على الكون كله فتراها ذلك الفجر الوضاء.

الفصل الثالث

فى البلينا عند العرابة المدفونة

— وقف بنا القطار على محطة البلينا وكنا قد تأهبنا للنزول عندما لمحنا قمم مبانيها المتواضعة وشممنا هواء صحرائها اللاقح . وما كدنا نقف على الرصيف حتى هرع الينا الرجال المنوطون بارشاد كل غريب « التراجمة » وهم من أهالى الصعيد يجيدون التكلم باللغات الأجنبية فى غير تعثر كأحد أبنائها ، مهنة مارسوها وأجادوها ، والبلد على غير ما كنا ننتظر ، عامرة بالغرباء والأجانب الذين يجيئون من وراء البحار باحثين دارسين فى جد وكيد ليتعرفوا إلى فنون القدماء غير عابثين ولا لاهين بل ليتخذوا من هذه الفنون سلما يرتقون عليه حيث المجد العتيد الذى يعملون على تدعيمه فى بلادهم مسترخصين أرواحهم فى سبيل مجد بلادهم .

وتقدمنا بعض التراجمة إلى الطريق المؤدى إلى آثار العرابة المدفونة وهى أبنية أثرية من عهد تحتمس ورمسيس . .

في قلب صحراء العرابة

وقالوا إذا شئتم اختصار الطريق فلا بأس من إجتياز الصحراء بالجمال .

فرحنا وطربنا وقبلنا ذلك .

وفعلا بدأنا نركب تباعا كل أثنين أو ثلاثة على جمل حسب ما يحلو لهن وكل جمل يقوده رجل عربى . .

جاء دورى فتقدم إلى قائد الجمـــل يساعدنى على ركوبه وقد لاحظت أن هذا الرجل ظل يرقبنا فى صمت منذ قدمنا ولم يقدم جمله لرفيقاتى كالآخرين بل ظل ساكنا لا يتحرك حتى جاء دورى وكنت الأخيرة فتقدم إلى واقفا أمامى يحول بينى وبين جمال آخر إقترب منى ، ولمحت فى عينيه التماعا أخافنى فداخلنى الشك أحجمت وتقدمت فى جرأة إلى الرجل الذى إعترضه قائلة له : ساعدنى على الركوب . . فتهلل وجه الرجل وكان شيخا مسنا ، وبدت ظاهرة الأنتصار على وجهه فلم يتكلم الآخر وانسحب فى هدوء يجر جمله بعد أن ألقى على نظرة زادتنى خوفا وقلقا .

سارت القافلة

رفيقاتى ينشدن ويصفقن مارحات طروبات . .

وراحت إحداانا تغنى بصوتها الرخيم ونحن نجاوب الغناء بالترجيع والتصفيق . . .

وأشرقت الشمس وضاحة المحيا فامتلأ الكون بشرا وارتفع الصوت فى الأفق العليا

اشرقت شمس الصباح وانقضى الليل وطاح
وتبددت فى الوشاح خير أفلاك السماء
كم نرجّى فى الصباح كى نرى الزهر لاح
ونرى فيه السماح مشرقا مثل البهاء

* * *

يومنا بالبشر رفّا عاطرا كالروح لطفا
وعديل الراح صرفا يملأ النفس صفاء
يا كواكب فى علاك لا حرمنا أن نراك
جل ربى من حباك كل نور وسناء

* * *

نسأل الله تعالى لنا خيرا ونوالا
وهناء وكمالا فى نعيم واقتبال
وأنل مصر مناها فى حمى بدر دُناها
وانتصار لحماها يا مجيبا للسؤال

كنت أشاركهن الغناء وفى الواقع كنت شاردة اللب سارحة وراء ذلك الرجل الذى يسير بجانبنا يرقبنى من وراء أهدابه . وعندما التقى نظره بنظرى أحسست أن نظراته كلمات قاسية مصوبة إلى فؤادى لتبلغ مكانها فى عمقه.

كل الرجال الذين يقودون الجمال يرتدون ملابس الأعراب المتواضعه يتمتعون بصحة جيدة وبنيه قوية وحركة التوثب الحار تشملهم وهم بثيابهم البيضاء وأغطية رءوسهم الدكناء كأسراب من الطيور تبدو صغيرة بجانب الجمال .

يتكلمون العربية الفصحى ، إنما بأسلوب أبناء الصعيد حيث تختفى أواخر الكلمات فى أفواههم .. على أن ذلك لا يضايق محدثهم لأن شاراتهم وحركات وجوههم تعبر فى صراحة عما يخالج نفوسهم طبعت الشمس حرارتها على بشرتهم وترك الجو اللافح بعناه على وجوههم فأصبحوا بوجوههم السوداء أشبه بابناء السودان . إنما يكيفهم رصانة النفس العربية وشكيمتها وحيويتها فتغلب على طبيعة أبناء الصعيد الحارة النافرة .

عدا التراجمة . جعلوا لملابسهم عنـــاية خاصة منهم يرتدون « القفطان » الحريرى ذات الألوان الزاهية كالأحمر أو الأزرق

ويلبسون على رءوسهم « الطربوش » تتجلى فيهم كياسة مصرية مكتسبة من الاختلاط والتكلف لترضية الأجانب ويحسنون صناعة المجاملات

أما ذلك الرجل فقد كان يخالفهم جميعا ، شاحب الوجه ، نحيل الجسم كأنه يعانى هما دفينا ، يرتدى رداء قاتما وتنعل بحـــذاء لا يلبسه غير سراة العرب وقد لف على رأسه عمامة لم يتقن لفها كأنه حديث عهد بلبسها ، يبدو من حركات نفسه المضطربة أن قلبه يبلى فى بطء ، وكان فى سن يقرب من الخامسة والعشرين .

لم يتكلم لما رأيناه حتى أعرف دخيلة نفسه من لهجته ، لذلك كنت مشوقة جدا لتعرف حقيقته ، فقد أدركت بفطرتى أنه يخالف الآخرين .

† صرنا وسط الصحراء الفسيحة وكانت الشمس استبقتنا اليها وعانقتها فسطعت حرارة حنوها على الرمل فأكسبته بريق الذهب وعلى سعف النخيل فبان من بعيد سابحا فى الضوء خارجا من لجة مذهبة متلاشية فى وهج الحريق والعرابة المدفونة كجزيرة رملية واقعة بين الجبلين قريبة من نهر النيل — هى فى الواقع قلب صحراء البلينا .

لم تمل عينى سراقبة الرجل رغم جمال الطبيعة الأخاذ .

ولم أشعر بانني ابتعدت عن بلدى حيث لافرق بين رعاة الغنم أو الفلاحين عندنا وبين هؤلاء سوى اختلاف الهيئة واللغة والصنعة إنما سماحة الطبع وكرم النفس وسذاجة الفطرة توجد بين كل من يعيشون بقرب الطبيعة الصافية.

فالسماء والماء والخضرة والحرارة — كل هذه المؤثرات الطبيعية — تلهم الناس جميعا على اختلاف تباينهم . . حيث أن الطبيعة تشاطر كل من يلجأ اليها سواء فى الصحراء أو البحر أو الرياض .

ولقد تلمست احساس السحر والنشوة يسرى فى كيان كل انسان حتى أنستنى بهجة نفسى كل شىء عـــدا الأنغماس فى روعة الخلو المطلق .

فهمست فى أذن قائدى .. أسرع بنا .. فأطاع ولكز الجمل فأسرع ولم آبه للرعشة التى ملكتنى من الخوف الباطنى ، حتى بلغنا الآثار وكنت قد قطعت مسافة كبيرة وحدى .

والرجل الآخر يجانبى بجمله أيضا وهنا ترجلت وقلت لقائدى الشيخ أريد أن انطلق فى الصحراء ريثما يصلان رفيقاتى فنظر إلى الشيخ فى دهشة كأن جرأتى غير مشروعة فابتسمت قائلة :

— لاتخش على — وتنفست ثم اردفت الا ترى ذاك الجو الوسنان يبعث فى النفس مساهينا فيطمئنها . فأومأ الشيخ برأسه وأشار الى بيده

ثاقلا : — سيرى من هنا وسأتبعك فقد يتعبك الرمل .

هرولت أعدو كالطير الطليق وقد حلا لى أن أخلع معطفى وحذائى وأسدل شعرى ورائى مداعبة الرمل بقدمى مستلقية على آنا متسلقة النخيل أحيانا ، وأنقطع الصوت فجأة ولازم الصحرا سكون العدم . . . فخفت واضطربت وكان الرجل الشاب قد اختفى فقلت للشيخ وكان جاثما كالأسد الرابض بالقرب منى — إذهب وابحث عن رفيقاتى وعد إلى لتأخذنى ريثما أستعيد قواى تحت ظلال هذه النخيل . . لقد أجهدنى المشى . . . ففتح الشيخ فمه ليتكلم فقلت :

— أتخاف الطريق ؟

قال — أخاف عليك !

فقلت — لا — لن يأكلنى الذئب سأنتظرك هنا . . وفى الواقع تلاشى الخوف وتملكنى شعور التصرف ولم أعد أفكر إلا فى الخالق الأعظم — خالق هذا التيه اللامحدود وتمنيت لو أنى الساعة فى قلب ذاك الخلاء الشعرى البديع .

غاب الشيخ ولم يحضر ... فعاودنى الخوف وقمت أتمشى باحثة عنهم ولفت نظرى كوخ فحولت خطاى جهته حتى بلغته فلمحت امرأة تطل من وراء ثقب يتسع لخروج رأسها منه تتأملنى فى دهشة

فاندفعت إليها بتأثير خفي وفاجأتها بتحيتي فردت علي بصوت خفي رقيق وفتحت لي الباب راجية أن أدخل لأستريح ، فلبيت دعوتها راضية فرحة ليطول بيننا الحـــديث . . . فكانت النظرة الساذجة الصافية تكيف حياتها وطبيعتها .

وتاقت نفسي لارتداء ملابسها القروية فرجوتها أن تعيرني ثوبا من عندها على أن تأخـذ ملابسي وديعة عندها حتى أرد لها ثيابها بعد أن أتصور بها .

فدمشت المرأة وقالت وهي تقدم لي كوبا من الشاي أحضرته ابنتها بدون إذنها ولعلها عودت الصغيرة بتأدية هذه المهمة كلما نزل عليهم ضيفا :

ـــ ملابسي لا تليق بك مطلقا ياسيدتي

قلت ـــ حسبي أن أتحرر من ضغط ملابسي التي تضايقني بفضل ملابسك الوسيعة الفضفاضة .

فهزت رأسهـــا متمتمة في خجل : قد لا تروق في ناظريك ببساطتها ؟

قلت بلهجة لطيفة : أنها ببساطتها أجمل من ملابسي ـــ صدقيني ، فنظرت إلي باسمة في ودادة . فاذا بالبسمة تجذب نظري إليها

لأتأملها وكأنى لم أرها إلا اللحظه ... لم تتكلف التجميل ، عارية القدمين ، شعرها الطويل الأسود مرسول نصفه على أحد خديها والنصف الآخر يعانق الأول فى نهايته ويستريح على ظهرها يدفعه الهواء إلى الخلف فيرتفع عن الظهر والكتف ثم يعود فيضرب خدها الناعم الرقيق كأنه الريح تدفع جناح الطائر .

وقميصها الأسود حجب ذراعيها بكميه الطويلين وقد أحكمت قفله عند عنقها ، وكأنها متأهبة دائما لدخول غريب ولم يظهر من تحت القميص الأسود غير حيوية قوامها الرشيق الملىء فى غير بدانة مؤثرا على قماش القميص فجذبه الى منحنيات الجسم ليظهر فتنة الأنوثة رغما عنها .

وكانت عيناها السوداوان ذاتى التماع متغير يجمع بين سواد ليل الصحراء الحالك وبريق الشعاع الذهبى الرائق . لون يلطف وحشة النفس الموهومة ويلهم الطمأنينة والبشر الأكيد ولونها الخمرى ، خلاصة الحرارة الصافية التى تستودعها الشمس سكان هذا الوادى ، ووجنتاها مستديرتين بديعتى التكوين . طبع عليها الشفق لونه الأرجوانى الذاهى وشفتاها السميكتان الملتهبتان يصوران الارادة القوية الثابتة ، يظهر من بينهما أسنانها الناصعة البياض تلمع على ضوء الشمس كما يلمع الصدف على شاطىء البحار تحت وهج الشمس ؛

ولما تكلمت تمنيت لو تظل تتكلم وانا أسمع ، مع أن الأثير يحمل نصف كلامها . . أنما ليضيف إلى لهجتها أواخر النغم الحنون .

ووجهها شاشة سينمائية تتجلى عليها عواطفها الدخيلة . . . كانت ملامحها تتحرك بعواطفها — مزيج من الدهشة والسرور والشك والبقين والخوف والرضى .

والكوخ داخله يشبه خارجه صنع من الحجر الذى يؤتى به من الجبل ، وإنما شيد فى بساطة لا تحتاج لكثير من العناء ، على أن هناك بعض أكواخ مصنوعة من الحصى والطين وأخرى من جذور النخيل التى تكثر فى هذه البلاد ومن الحجارة أيضا ، وبه من الأثاث مايكفى لحاجتهم ... وقد لاحظت انه صنع بأيديهم ، فالسرير من سعف النخيل والحشية ، والوسائد والملاحف من صوف الأبل والماعز ، والآنية من الفخار حتى الاطباق والقدر .

تركتنى برهة تأملت خلالها هذه الأشياء ، ثم عادت تحمل بين يديها بعض ثيابها قائلة : اختارى ما شئت — هذه أحسن ثيابى . ووضعتها بين يدى ، ولحقت بها ابنتها قائلة لقد نسيت الحلى يا اماه ... اتخرجين مع السيدة بدونها . فأجابتها .. لست فى حاجة إليها . السيدة غنية بحليها .

فجذبت الصغيرة وقبلتها وأخذت منها الحلى قائلة ، ساتحلى بها أيضا لأكون فتاة عربية . وخلعت ردائى وناولتها اياه .ولبست السروال الطويل ، ومن حسن الحظ كان طولها يماثل طولى ، ثم أرتديت القميص الأسود ، وهو يشبه قميص المرأة الفلاحة عندنا تماما. لكنه غير رقيق لكى لا يبدى تقاسيم جسمها . ثم غفصت شعرى وربطت فوقه منديلا أسود ، اسدلت عليه خمارا أسود أيضا ، ولبست القرط الطويل الذى لم يشعرنى بأى ألم لخفته ، ووضعت على صدرى القلادة وهى من الخرز الكبير المحلى بالفضة ، ولبست الأساور ، ووضعت على جبينى لفافه تدلت منها قطع فضية تشبه القطعة ذات القرشين . وسألتها : كيف تريتنى ؟

فابتسمت قائلة : حلوة جدا .

وناولتنى قطعة من الزجاج الصقت بظهرها قطعة من الورق الأسود مردفة : أنظرى فى المرآة .... فراقتنى صورتى واخجلنى اطراؤها فقبلتها لأخفى خجلى ، ثم درت دورتين على عقبى فى طرب من فرط اعجابى بنفسى ، وكأن نفسى أعلنت فى نشوة مبلغ سرورها بهذا الزى البسيط الصريح . فتنفست فى طلاقة واحسست الدم يجرى فى عروقى ويندفع فى وجهى ، وأظن المرأة أحست بذلك لأنها قبلتنى بين عينى بحنان وقالت : كأنك أميرة عربية - لو رآك الأمير لأحبك.

فضحكت حتى كدت أستلقى على ظهرى وقلت : الأمير .... أوه . . . ما أكرم تعبيرك . . انسيت أننى من بنات الشعب . فربتت على كتفى برفق قائلة : أعرف ذلك . . وأعرف أيضا أننا أصبحنا فى عهد الديمقراطية الحاكمة الآمرة : وأن امتزاج دم الملوك بدم الشعب جعل للأمم الديمقراطية سلطانا أقوى وأشد من سلطان الارستقراطية الطاغية .

فهززت رأسى مقتنعة بقولها متمتمة : اجل — كل تآلف يحتمل فى عصر النور ، والآن هل تسمحين لى بالأنطلاق .

قالت : إلى أين يا كنار الصحراء ؟

قلت : إلى الخلاء مهد الهناء ..... واختطفت منها قبلة وخرجت اعدو كالطير الذى خرج من قفصه بعد طول احتباس .

تمنيت لو أظل هكذا حتى نهاية أيامى ، يخفق قلبى بحرارة ، ويفكر عقلى فى طلاقة ، قانعة ببساطة العيش مع هدوء الحياة .

وترامى الى لحن منغم يقاطعه صوت ناى حنون ينساب برفق من بين شفتين كأنهما وتران يترنمان ، فتمشيت أتابع الصوت لأعرف من صاحبه ؟؟ . . .

يا وحيدا ضاع فى غمر الليالى ويتيما قد جفاه الأقربون
قد طواه الدهر فى دنيا المحال وازدراه الناس حتى المخلصون

* * *

يا يتيما لم يجـــد إلا الهموم يصطليهـــا فى انين وسكون
قد براه الهم فى دنيا السموم ورماه الدهر فى ريب المنون

وهنا كنت قد بلغت صاحب الصوت ، فلما لمحنى صمت مطرقا ،

فتوقفت عن السير ، ورحت أشد وبصوت تسبقه الدموع

أيها الشادى سمعنا من نواحك فهرقنا الدمع كالمزن الهتون
ليت شعرى من يداوى من جراحك من يواسى صاحب الهم الدفين

* * *

قد فقدت الأم فى مهد الفطام فشربت الصاب من كأس المنون
وقضيت العمر فى مر السقام وظلام ليس يمحوه السنون

ولست أدرى كيف الهمت هذا الشعر ، كأن شيطانا إن كان للشعر شياطين كما يقولون . . تكلم فى ... كنت اهتز وانتفض كعصفور .... وأنا أغنى ـــ وظللت فى موقفى ساهمة كالحالمة حتى اقترب الرجل صاحب الصوت منى ، قائلا : أنت .. ازددت حسنا

كأن السحر معناك. فأطرقت برأسي خجلة وقد أدهشتني المفاجأة .. إذ وضح لي وجه الرجل عن قرب فرأيته ... الجمال الذي أبيت أن أركب جمله . وقد راعني ما رأيته في وجهه من ملامح لها معناها عن كثب ... فهو حديث السن ذو وجه سمح رغم شحوبه الواضح ، وعلى جبينه طابع الخلق الشريف ، وفي لهجته قوة الرجولة المعتدة بنفسها ، يلوح عليه سيماء العظمة ، وفي عينيه بريق ينبيء عن سر دفين يحرص على كتمانه . وهو لا يرفع نظره إلا لماما ويرده على عجل إن نظرت اليه .

وخيل الى أنني لو ظللت أتأمله لما مللت النظر إلى وجهه ابدا، فيه قوة مغطسة جذبتني إليه في عنف ولكنني احتفظت بثباتي وكبريائي وتحصنى موارية الشعور الحائر اللطيف الذي اسكرني برهة ثم ردني إلى صوابي عندما سمعته يقول : ظننت انك تبحثين عن الطفل .

قلت : أي طفل ....

قال : ذاك وأشار بيده إلى طفل افترش الأرض والتحف السماء.

فقاطعته قائلة : اتراه ضل الطريق

قال : أنه ابن شهور ، وقد وجدت معه هذه الرسالة .

أيها المار الكريم

إذا مررت بهذا الطفل تعطف عليه بقبلة أن كنت فقيرا ، وبقليل من لبن المـــاعز إن كنت موسرا ، وارعه أن كنت كفيلا برعايته أنه ابن أحب باركته السماء وانكرته الأرض، صعب على الأم أن تقتل أبنها . فقتلت نفسها .... وصعب على الوالد أن يعيش بدون حبيبته فقتل نفسه بعدها . وبقى الطفل عنوانا لقصة الحب المقهور وطابعا على جبين قسوة الأقدار . والدغنى... وام فقيرة.. والغنى والفقر لا يجتمعان فى شرعة العقول المريضة .

أبت التقاليد الكاذبة أن تجمعهما باسم الزواج فعانقهما الموت سويا ليتمتعا فى عالمه البرىء . وبقى الطفل ليقص على مسمع الأجيال حكاية الظلم والجهالة .

فان استطعت أيها المار النبيل أن تبارك الحب ، فباركه فى هذا الطفل ، وإذا صعب عليك ، فاتركه فى رعاية الله .

ولدى إذا أبقاك الله انتقم لأبويك ....

أموت مرغما لأن أمك تنادينى .

أما أنت فانى على يقين بأنك سوف تعيش ، سيمر بك صاحب قلب كبير يعرف قيمة الحب ويقـــدر قسوة الأهل وظلم الأوضاع

الباطلة . وسوف تكبر وتحب وتغفر لنا جنايتنا .

أمك المسكينه كانت أضعف من أن تقاوم احتقار الناس وقسوة أهلها وعشيرتها .

وأنا لا أقدر على الحياة بدون أمك

ولدى أستودعك الله .

* * *

لم أتمالك نفسى فبكيت وقد عدوت حتى بلغت الطفل ، فاحتضنته بكل عواطفى مقبلة كل موضع فيـــه ، لأنه عطف وحنانى كأنه إبنى خرج منى ....

بكى الرجل فى صمت ، وقد تساقطت دموعه على وجه الطفل ، ففتح الصغير عينيه ورفعهما إلى ثم اليه كأنه يجاوب صدى عطفنا الدافق ، وحرك يديه وقدميه فمال الرجل عليـــه ، وحاول أن يأخذه منى ، فأبيت والصقته بصدرى كأننى أخاف أن يختطفـه منى ، فابتسم فى مرارة قائلا : سأتبناه ....

قلت : أنا أولى به ....

فنظر إلى مشفقا وقال : لاضير على إذا تبنيته ... فانا رجل ... أما أنت فعذراء ... ففهمت مرماه ودفنت وجهى بين ذراعى

الطفل لأخفى مدامعى ... تضاءل أمامى كل شىء . عدا حبى للطفل... اشتد حتى ملك كل حواسى ، فنظرت إلى الرجل فى جرأة قائلة : وماذا يهم .

قال : ماذا يقول الناس عنك . . . .

قلت : سأعهد به إلى مرضعة ترعاه حتى دور الفطام ، ثم أرعاه بنفسى .

قال : انك تتكلمين بحسك الآن . . . ولكن عقلك يعيش تحت ضغط الناس رغما عنك .

قلت فى يقين : أنا واثقة مما أقول .

قال : أهلك وعشيرتك وبيئتك تحرم عليك ذلك .

قلت : بايمان أكيد . . . . لو تطلب منى الخروج عن طاعة هؤلاء جميعا لما ترددت .

قال : جرأة فى ظنهم غير مشروعة .

قلت : حسبى راحة ضميرى والتكفير عن خطيئة الآثمين .

وهنا لمحت قائدى الشيخ يجوب الصحراء باحثا عنى ، ومر على فتجاهلته وملت على الطفل أناغيه بغير صوت ، فلم يعرفنى وسأل الرجل . . . ألم تر الفتاة المصرية ، أخوف ما أخافه أن تكون ضلت الطريق - وتململ الشيخ وتأفف ، وقبل أن يتكلم نظرت إلى الأعرابى بمعنى

لاتقل . فقال له : اطمئن . . . قد تكون فى طريق الآثار ، ولما غاب الشيخ عن بصرى . . . قلت للرجل : والآن . . . علام عولت ؟ ! ..
قال . . . الطفل من نصيبي طبعا واسمح لك برؤياه كلما شئت .
قلت : ولكننى أعود إلى وطنى بعد أيام .
قال : لتكن مشيئة الله . . . لايمكننا أن نفعل إلا ماترسمه لنا الأقدار .
قلت : استودعك إياه الآن . . . ريثما اذهب وآتى له بما عز تدر له لبنا .
قال : لاتكلف نفسك أى عناء فى سبيله مادام تحت رعايتى . . . لقد اشتريت له ماعزتين ، وكلفت امرأة عجوزاً برعايته ، وقد تركته لى الآن ، لأنها ذهبت تهيء له فراشا وثيرا فى كوخى .
قلت : اذن دع خياطة ملابسه لى . . . سأذهب الآن ، وآتيك بعد ساعات ، فهل القاك هنا .
قال : هناك فى كوخى عند الجبل ان شئت . . .
قلت : اتفقنا . . . فالى اللقاء

وقبلت الطفل بحرارة وانطلقت مسرعة ، لأعـــد له هدية ، وفى طريقى مررت با كواخ السكان ؛ فلفت نظرى نساء الحى . بعضهن يغزلن والبعض يحلبن الماعز والفتيات الصغيرات يشتغلن

بصناعة الخوص والخرز ، فيعملن من سعف النخيل السلات والمقاعد والسرر ، ومن الخرز الحلى التى تتجمل بها النساء . وبعض الأوانى التى تصلح لزينة الدار وتباع للغرباء السائحين .

كل امرأة جالسة أمام كوخها ، فالحى وقت الضحى كمشغل للصناعة جلست فيه العاملات مجدات فى رصانة ووقار وحرية لاتخلو من سحر حلو بريء ، والصغار يقلدنهن ويناولنهن مطالبهن ، ولقد خصص لكل صغير عمل يلائم سنه وميوله . فهذا ينتقى الخرز ، كل لون على حدة ، وذاك يفرز القش ، وآخر يبلل السعف بالماء وهكذا .

وما كدت اقترب منهن حتى رفعن رءوسهن ، ناظرات إلى فى دهشة وقد لمحت الريبة تغمر وجوههن ، ان ملابسى كملابسهن ولكن لاشك أن الطبيعة المصرية تغلب على . وبادرتنى احداهن كأنها شاءت ان تعرف حقيقتى من لهجتى قائلة مرحبا بالأخت . . . . فتكلفت اللهجة العربية مقلدة نغمتهن . . اسعد الله صباحكن .

كشفت لهجتى عن حقيقتى بلا ريب ، لأن رنين صوت المصرية يلازمها مهما تبدلت وتغيرت . وقد ادركن ذلك . . فابتسمن وقالت احداهن . . تفضلى . وانهالت على كلمات المجاملة والترحيب . . فلم أر بداً من مسايرتهن ومجاملتهن ، وفعلا جلست معهن بعض لحظات

وقد نسيت كل شيء إلا إياهن . وحديثهن مرغوب فيه يمتاز بلطفه ، وغريزة الاستطلاع عندهن قوية ظاهرة ، فهن يحاورن بمهارة فائقة وكياسة نادرة ليعرفن الحقيقة .

راحت كل واحدة منهن تسألني سؤالا يهيب بي إلى الصراحة... وفي الواقع طبيعتهن الصريحة تبعث في النفس الأطمئنان ولا تكلف الإنسان عناء التلفيق والكذب . لذلك لم أر غضاضة من التحدث اليهن في صراحة ، حتى عرفن اسمي وبلدي وكل ما يمكن أن يعرفه عني انسان عاشرني طويلا وفهمني أيضا . وفجأة . . . . مر بخاطري طيف الطفل فرجوت من احداهن أن تدلني على الطريق الموصل إلى سوق البلد حيث تباع الأقمشة . . وكانت نظراتي التي وجهتها للمرأة التي فضلتها كافية لكي تجيب رجائي ، فقامت معي في غبطة مظهرة كل بهجة ورضا قائلة : سأصحبك كما تشائين

فمددت لها ذراعي في لطف . . . وسرنا جنبا إلى جنب تحدثني في ايجاز عن بلادها . يا لجلال المرأة العربية

لا أحسب امرأة في العـــالم تحتفظ بانوثة حواء الأولى وطبيعيتها الطاهرة الساذجة ووحشيتها الغامضة المحببة كما تحتفظ بها المرأة التي تعيش في الصحراء . انها كما خلقها الله ، وكما كونتها الطبيعة ، وكما

يشتهيها الرجل ، لاتعرف صناعة التجميل ، ولا مجاملة المعاملة ولا نفاق المعاشرة .

وفى الحضارة حسن مجلوب بتطرية

وفى البـــداءة حسن غير مجلوب

ملابسها السوداء الطويلة الفضفاضة تسترها من قمة الرأس حتى الخمص القدم ، وقد تطول فتبدو كغصن ناضر إذا رف عليه النسيم ملأ ماتحوطه عطراً شذيا . وكأن الحكمة ، حكمة الجمال اللامحدود لاتستقر إلا فى أعماق هذه المرأة التى تتكلم فيها البساطة بآيات الحسن والبهاء . وشعرها الطويل المسدل على ظهرها كغصن ناضر تدلى فى تيه ودلال يحكى نشيد السمو معناء فى رقته ، كأنه الحبل الحريرى الذى يربط المرأة بالسماء . وهى بقوامها الأهيف المملوء فى غير بدانة كعمود من النور كساه الخالق بغلالة من الظلال ، تحجب شفتيها لتبدو لنا بشراً سوياً . هى انسانة ان بدت ولكنها فى الحق ، فكرة من الجمال اختلطت بالوجدان فتجسمت وصارت امرأة . وعيناها . . . هما عينا الغيب ، اللامحدود ، لهافى كل نظرة معنى فيه قصيد ، وفى كل لمحة لها نشيد .

وافتن مافى المرأة العربية نفورها ، حاولت جهدى أن أصورها

(بآلة التصوير) فريعت ونفرت وجرت كالظبي الشارد . هى تجرى وأنا أجرى خلفها ، كأنها فريسة يطاردها الوحش الجائع ، وقد حلالى أن امعن فى معا كستها ، لاتزود من فتنتها فاوهمتها انى عدلت عن تصويرها ، مادامت لاتريد ، فصدقت . . . وطبعى أن تصدق لأنها لاتعرف الكذب حتى ترتاب فيما أقول ، واتجهت نحو الشمس متصنعة أخذ صورتها . . . فضحكت المرأة وقالت : لن تمانع الشمس لأنها ملك العالم كله .

قلت : وما الذى يمنعك . . . قالت : أنا ملك زوجى . . . وزوجى لايبيح لى ذلك ..

فدهشت وتمتمت . . . زوجك .

قالت : أجل وسأعرج عليه بك الآن لترين بضاعته فقد تجدى طلبك عنده . وعدت أدمدم . . . أنت متزوجة .

قالت فى زهو : ولى أولاد أيضا .

فازددت عجبا وقلت : من يرك لايتصور أنك زوجة أبدا . . . انك محتفظة بسحر العذارى وخفرهن ، وهـــذا ماحدانى إلى الاعتقاد بانك عذراء . فابتسمت ابتسامة الحيرة وقالت : ماذا تعنين ؟ ؟ . . اليست الزوجة والعذراء كلاهما امرأة . . . اعنى

انثى لها طابع الأنوثة بخفره ورقته ، واستعرضت فى خيالى صور النســـاء المصريات على الأخص المتزوجات ، وقارنت بين المرأة المتزوجة هنا وهناك... هنا المرأة العربية تستحى أن تطل من النافذة لا عن خوف أو اضطرار ، لـكن طبيعة التعفف فيها أقوى من رغبة التطلع إلى ما وراء الدار . بينـــا المرأة المصرية التى تظن الاستهتار سحرا والأختلاط بالرجال فنا ، مكتسبة هذه الأباحية الطليقة من المدنيـــة الـكاذبة التى أخذتها من أختها الغربية ابنة المتعة والمباهاة . وملـكنى الفكر حتى كاد يردنى عنها ، كأنها روح مقدسة يجب الا تحسها أى روح غريبة ، حتى روحى التى أعتقد أنها نقية طاهرة . ولـكنها أخرجتنى من هواجسى بقولها : انظرى .... هذه جدتى عائدة من عند زوجى ، كانت تنظف له المحل ، وتنظم له الحاجيات . فشهقت حتى ظننت أن إنفاسى قد انقطعت ، وحاولت الـكلام فصعب على ، ولم اتمكن الا من قولى ... جدتك ! ! . . . : ياالله .. كأن الزمن لا يحسب اعماركم ... يا عجبـــا ... أى أمرأة هذه ؟ ! .. ... اتراها حفيدة القدر ـــ ام تراها ساحرة تتغلب على الزمن بقدرة تستعيضها من الأزل . فقاطعتنى قائلة : أنها بلغت من العمر الخامسة والثمانين ، ولـكنها قوية جدا كما ترين .

فهززت رأسى كأنى أشك. ودرت بنظرى منطلقة الفكر اجوب الصحراء بعين روحى، باحثة عن السر المجهول الذى يبعث فى حياتهم نضارة الربيع إلى آخر الحياة المقدرة لهم ، فى عالم الأحياء ، من يظن هذه المرأة التى تسير معتدلة القوام فى نشاط فائق كأنها خلقت للتوثب الدائم . هى جدة ... شبت على النسمات العذبة . حينئذ أدركت أن صفاء هذه الطبيعة هو باعث هذه الحيوية .

فتنفست فى طلاقة تنفسا لا احسبنى بمستطيعة أن أتنفسه فى غير هذا الفضاء الصافى . . . وايقنت أن الطبيعة وحدها مبعث الطمأنينة والهدوء والصفاء والقناعة والأمن والسلام ، فلم لا تكون حياتهم عامرة بالبشر والأمان .

ووقفت بى على متجر زوجها فحيته قائلة : عم مساء . يا ابن العم، أعرض على الأخت بضاعتك .

فرد عليها التحية وهو يكاد يلتهمها بنظرات الحب كأنها معشوقة لازوجه ... هكذا خيل الى ... لأن الزوجة فى بلادنا يعيش معها الزوج عيشة آلية عادية مملة لا حب فيها ولا لهفة .

ما رأيت زوجا مصريا ينظر إلى زوجته نظرة حب أكيد كهذا — لذلك كانت هذه النظرة غريبة عندى عجيبة . ويكفيك أن تسمع

لحبه ولهجتها ، فتثق تمام الثقة بحبهما المتبادل الرفيع ، حب الانسان لروحه ونفسه .. قلت لأحول نظرة الى : هل عندك لعب للأطفال منتظره ان يوليني الرجل كل اهتمامه . . . وأنه سيعجب بى ، وقد اثير تقديره كما أثرت اهتمام من هو أعظم منه أثرا وشأنا . . . ولكن الرجل نظر الى جادا قائلا بايجاز : يا سيـــدتى . . . نحن لا نتجر فى لعب للأطفال .

فتكلفت الرقة لأغريه قائلة : ولكن بلادكم عامرة بالأطفال . قال : يلعبون بالحصى والرمل وسعف النخيل . . . يتعلمون بالتجربة والمران كيف يصنعون من سعف النخيل شيئاً نافعا مفيدا . واشار إلى السلات والمراجين والأسرة الخ . . . وكذلك يصنعون من الرمل والحصى معجونا يكونون منه هذة التماثيل الصغيرة التى تشبه تماثيل الفراعنة .

وهذا التعليم العملى غير المباشر هو الأكثر أفادة للأطفال بلا ريب ، يقوى عقولهم ويهذب نفوسهم من غير تقييد أو اضطرار .

قلت : أرنى أصـــناف الأقمشة ، فقاطعتنى زوجته قائلة — أظنك لست فى حاجة الى الآن ، إذ يتحتم على أن أعود لاهىء العشاء لاولادى ، وإن شئت أمرا فزوجى طوع أمرك . وصافحتنى ثم حيت زوجها ومشت بعد أن شكرتها على تلطفها معى ثم بدأت أتخير مما

قماشا يوافق الطفل ، والرجل ينتظر أمرى فى سكون حتى انتقيت القماش ودفعت له الثمن كما طلب وانصرفت .

ظاهرتان عجيبتان فى هذا الحادث العادى ، المرأة تنسحب وتترك زوجها تحت تصرفى ، ثقة عالية . . . قلما توجد عندنا فى مصر ، أى زوجة مصرية تترك زوجها تحت تصرف امرأة غريبة عنها . . . . والظاهرة الثانية اعتداد التاجر بتجارته . . لم أسمع منه ثرثرة ليغرينى بالحديث المنمق والكياسة المصطنعة كى اشترى أكثر مما أريد ، كأنه يسمو بعمله فوق أى عمل ، وكأن ايمانه بالله حسبه .

التاجر عندنا ينحط بمهنته إلى الضعف المخنث ، فهو يرجو ويلح باسلوب يبعث الدم فى وجه المرأة الشريفة ، ويلجأ إلى الكذب والنفاق ليروج بضاعته . مع أنه لو آمن بالله إيمانا مطلقا ، وعرف أن الأمانة والصدق والتعفف أنفع له وباعث قوى على اتساع رزقه ، لما لجأ إلى الاضاليل . فلا بد للمشترى أن يشترى بضاعته ، ولا بد له أن يبيع . والرزق المقدر له لا يتعداه ، إن التاجر فى مصر يقضى وقته فى صناعة الكلام ، فالشىء الذى يستغرق ربع ساعة فى بيعه ، يقضى فيه ما يزيد على الساعتين . خصوصا إذا كان (الزبون) امرأة ، يخرج من لون القماش إلى لون وجهها ، ومن طراوة القماش

إلى طراوة جسمها ، ومن لين القماش إلى عذب حديثها وهكذا حتى ينقلب فى لحظة إلى شاعر متهوس يجيد أسلوب الغزل السوقى . وقد ينتهى بيع القماش بمعرفة المرأة وتحديد موعد معها . . . وتطول القصة حتى تنتهى الرواية بعد أمد قصير أو طويل ، أضاليل تبعث الخجل من أنفسنا ، أى والله من أنفسنـــا ، لأن دم الوطن الذى يربط الحر بالعبد ، يشعر الأول بذل الثانى ، فيتألم له أكثر من ألمه على نفسه لأنه يحس بأن ذراعه مبتور .

بقى أمامى حياكة ملابس الطفل ـــ فما العمل ؟

خفت أن اذهب إلى رفيقاتى فى دار الآثار فيضايقننى بالأسئلة التى تحدثها المفاجأة غالبا فى مثل هذه الأحوال . فما معنى خياطة ملابس طفل غير عابئة بمشاهدة الآثار التى جئت من أجلها ، وكيف غيرت ملابسى ؟ . . وأين ؟ . . وقد ترغب كل واحدة أن ترتديها لحظة ، لتأخذ بها صورة تذكارية ، طافت بذهنى كل هذه الأسئلة ، وضاق صدرى بالإجابة عنها ، أخيرا فضلت أن اختفى وراء شجرة باسقة بعيدة عن المارة ، وعدت ابحث عن شجرة ظليلة فى مكان هادىء حتى عثرت عليها فأخذت مكانى تحت ظلها الوارف ، واعددت ملابس الطفل بقدر المستطاع ، ولشد ما كان فرحى عندما انتهيت من حياكة الملابس بعد مدة وجيزة لا تزيد عن الساعة .

ولعل البدر أدرك مابى فطلع من وراء الأفق يزدهى نورا ويتألق بهاء ، فسرت على ضوئه ميممة وجهى شطر النيل ، باحثة عن الرجل والطفل . وأنا أحس بأن القمر ينساب إلى روحى فيهزها منتشية بسحر السنى

قف فى سمائك ياقمر انت الحبيب إذا ظهر
لاتختفى خلف الستر قلبى يناوشه القدر
ياحبيبى أدن منى
ياسميرى خذ وهبنى
فى فضائك ترتع والنجم قربك يلمع
وأنا أمامك أسمع نغم الضياء الممتع
انت روحى تتمنى
ويح قلبى بالحب جن

نسيت نفسى بهذا الشدو ، حتى تنبهت على صوت رقيق ناعم يقول من تغنى ؟ ! ...

قلت : من بنات واديك .

قالت : لاتعرف ابنة البيد حلاوة التغريد.

قلت : تتواضع لتزيدنا فتنة .

قالت : بلهجة حلوة . . . غريبة

قلت : بل قريبة

فابتسمت وقالت بنغمة حيية : معذرة يشرفنا أن تكونى منا وكأن الله أرسلها لانقاذى لأنى ضللت الطريق ، فاطمأننت وقلت ، أيمكن سيدتى أن تدلنى على الربوة القريبة من الجبل .

قالت : أظنك تعنين ملعب العذارى . . . هناك . . . بالقرب من شاطىء النيل .

ملعب العـــذارى . . . تسمية غريبة لم أسمعها من قبل . . . سألتها ، قد يكون هو المكان الذى أعنيه ، ولكننى لا أعرف اسمه . . . وسرت بجانبها طروبة ثم سألتها : وما معنى هذا الاسم . ؟ .

قالت : ان العذارى تتريض فيه وتتنسم الهواء الطليق اذا ضقن بمنازلهن ، وهو بمعزل عن الرجال . . .

قلت : تعنين أنه لا يلعب فيه غير الغانيات

قالت : أجل . . . ولا يمر به أى رجل أيضا فى الساعات المحدودة للعب . . . صيانة لحرمتهن ورعاية لكرامتهن — كى يأخذن حظهن من الرياضة والهواء النقى دون خوف أو حذر .

قلت : تحصن وحرية . . . ما أجمل هذا ، كنت احدثها وارمقها

خلسة باحثة عما وراء كيانها من أسرار ومعان ، ضاغطة على الرمل بقدمى كأنى استنجده ليعينى على منطق وجيه ، وأظنها فسرت حيرتى البادية بالجهد الذى يحتمل أن يكون قد أصابنى من وعثاء الطريق .

فقالت وهى تنظر إلى بعينين ناعستين فيهما حنان ملتمع :

أظنك تعبت .

قلت : أبدا — لكن رقة الرمل تجذبنى ، لكأننى أسير على حرير أملس — وترادفت خواطرى فاردفت لو لم أعرف أننى أسير فى صحراء رملية لظننت أن الأرض تفجرت فابانت طبقة من طبقات أرض الفردوس . فضحكت متمايلة كغصن يداعبه النسيم ، فيا لسحر ضحكتها ، لكأنها احدى أنغام الموسيقى العلوية ، هابطة منسجمة فى هدوء ، ولا أظنها خلقت إلا لتضحك — أو كأن الضحك عندها مهنة مارستها فاتقنت وأبدعت أو علها تعلمت الضحك منذ بدأت حواء الأولى تضحك فلمست موطن السحر حتى أفتنت

كنت أسير على عجل وهى تتابع خطاى ، فقالت : كأنك على موعد . قلت لا أخفى عنها الحقيقة ، مع البدر هناك ! . . سمعت أن منظر هذه الربوة تحت أشعة القمر ساحرة ، فرغبت فى استيعاب هذا المشهد عن قرب ، ولمحت شبه شعاع خفيف يبدو من بعيد فسألتها : ماوراء هذا الشعاع ؟ .

قالت : كوخ عربى

قلت : أيعيش صاحبه وحده هناك ؟ ؟ . . . كأنه زاهد !

فهزت رأسها مغمغمة : شبه ذلك

قلت : كأنك تشكين فى زهده .

قالت : اجل . . احيانا يعيش هنا يتملى من الحياة كما يريد ، وآنا يعيش هناك كأن به عزوف عن كل الوجود .

قلت : تناقض غريب يحمل سرا .

فأطرقت رأسها مفكرة كأنها هى الأخرى تحمل سرا .

فاردفت : عله ساحر !

قالت لاأظن فملامحه تدل على استسلامه لله وبعده عن الأضاليل ، وهنا اقتربنا من الكوخ فترامى الينا صوت حنون تقاطعه نغمات الناى الحزين ، فتوقفنا عن المسير لنستمع الى الغناء ، وقد طفرت دمعة من عينى صاحبتى ، لكنها حولت وجهها بعيدا لتخفى ما ألم بها . . .

تعالى نملأ الدنيا غراما ونحيا فوق دنيا العالمين

تعالى نسكب الأرواح شعرا لنروى لوعة القلب الحزين

تعالى يامنى القلب الولوع

تعالى

تعـــــالى نرسم الأحلام ولا نخش أذى اللـــوام
وحسبي محنـــة الآلام وما بعثرت من أيام
تعالى يامنى القلب الولوع
تعالى
الا القـــاك فى قربى ابثـــك لاعج الحب
وما اضمرت فى قلبي لذاتك من هوى عذب
تعالى يامنى القلب الولوع
تعالى

عرفت صاحب الصوت قبل أن أراه ، واستبقتنى المرأة فى بطء لتخفى اضطرابها ، وقد لاحظت أنها تأثرت بالصوت تأثيراً بالغ عمقها وأنه وجد فى قلبها صدى . فقلت لأعرف حقيقة عواطفها : لكأن هذا الصوت صادر من وراء السماء .

قلت بصوت الحالمة التائهة : لأن صاحبه من ابناء السماء .

فبدأت افهم شيئا جديدا واستطردت : أتعرفينه ؟ . . .

فارتجفت وتلعثمت ونظرت بعيدا كأنها خافت أن أفهم سرها من عينيها قائلة بصوت خفيض : أسمع عنه . . . .

وكنا قد بلغنا الكوخ فقلت : أنا عطشى وفى الواقع تصنعت الظمأ القاتل فترفقت بى وقالت : هنا ماء ... وطرقت الباب بيد مرتجفة... فبان وجه الرجل « الجمال » بعد أن فتح الباب فى هدوء ، كأنه كان على موعد مع الطارق ، فأختفيت خلف الجدار لكى لا يرانى ، وسمعته يقول لها بلهجة لا تخلو من التحذير . . . كيف جئت ؟ ادخلى . فتوقفت قائلة : ابراهيم . . . معى فتاة غريبة عطشى ، فصفق الرجل مدمدما . . . غريبة وأطل برأسه من الباب فى لهفة ، وكنت قد اقتربت لكى لا يتهمنى بالتجسس ، ولشد ما كانت دهشته عندما رآنى فتحركت ملامحه من الدهشة إلى الخوف ، الى المسرة ، إلى التردد .

قلت بلهجة جادة كأنى لا أعرفه : مساء الخير ياسيدى ، هل عندك ماء ؟ فأسرع واحضر إلى أبريقا من الفخار ناولنى إياه قائلا : معذرة لأننى لا أملك سواه ، أعيش وحدى ولا يشرب منه غيرى .

فشربت حتى ارتويت — لم أكن عطشى ولكننى لما رأيت الماء بين يدى أحسست بالظمأ . كالإنسان لا يشعر بحاجته إلى الشىء إلا إذا وجده بين يديه ميسوراً لديه . . . ولمحت الطفل نائما ، فدنوت منه أقبله وأناغيه ، وقد انتهزت المرأة هذه الفرصة ، فهمست فى استحياء : لم ارك منذ عهد بعيد ... ماذا دهاك ؟ ! . . .

تملكنى شعور غامض عجيب . . . فانسحبت فى سكون وأنا

قول للرجل اشكرك . . . . طفلك وديع، وخرجت بعد أن وضعت هدية الصغير تحت غطائه دون أن يشعر أبوه . فتبعتنى المرأة برغمة . . . إذ كانت ترغب فى البقاء بجانبه بلاريب كما فهمت من ملامحها خرجت متعثرة بعد أن قالت له بصوت خفيض : متى اراك ؟ . . فاطرق برأسه صامتا ونظر بعيدا ليرقبنى .

ولما اقتربت منى نأبطت ذراعى فى هدوء ، وقد شعرت انهـــا تجذبنى لتلقى فى كيانى ما فاض عنها من عاطفة كامنة ، وسارت بجانبى فى صمت . . . فاحترمت عواطفها ولم أشأ أن اشوه جلال خواطرها . ولم نكد نخطو بضع خطوات حتى سمعت صوتا ينادى . . . يا سيدتى . . . . فتلفتنا خلفنا وإذا بالرجل يكرر نداءه ، وفهمت من اشارته أنه يعنينى .

توقفت المرأة ونظرت اليه فى لهفة حارة ، فلما اقترب منا خاطبنى : لقد نسيت هذه الورقة ، وتبين لى أنه لم يفتحها .

فقلت : آه لقد نسيتها ـــ على اننى فى غنى عنها . . . خذها هدية منى للصغير : فقدمهـــا الى فى انفة قائلا : شكرا ، ليس الطفل فى حاجة إليها . . . ودار على عقبيه وعاد مسرعا بعد أن رمانى بنظرة قوية . . . ما معنى هذا ؟ ؟ . . . لم أفهم ! ! ! . . . أنه يعرف أننى

سأحضر هدية للطفل ، و تعنت على موعد معه ، فلمـــاذا رفض الهدية . . . اتراه يتعمد اذلالي أمام هذه المرأة لا بد ! . . . وعاودتني كبريائي ، وتحفزت كرامتي للأخذ بالثأر في ثورة وجنون .

تغتفر المرأة كل شيء ، عدا اهانتها أمام امرأة أخرى . وزادني غيظا انطلاق وجه المرأة بعد التجهم بالبشر وقولها : أنه يعتد برجولته إلى أقصى حد ، وبقدر ما يحب المرأة يصدها ويهجرها ، ولكن ليست كل أمرأة تغريه . وتنفست كأنها مطمئنة إلى فتنتها فاشتد حنقي . مفكرة : هل اكون أقل منها فتنة ! ! . . أتكون ثقافتي أقل من جهالتها . وبدأت أنظر إليها من جديد نظرة الكاشف الباحث لادرك ما وراء نفسها من معاني . فاذا بها امرأة ممتازة بفطرتهـــا الساذجة البريئة المستسلمة رغم جهالتها . . . وفهمت أن السحر لا يكتسب بالتعليم والمران . . . انما هو قوة معنوية ، يهبها الله لمن يشاء من عباده كما يهب الذكاء والشجاعة مثلا ، لكن اتشفع هذه العقيدة للرجل ؟ ايمكن أن تبدد ما أصابني من أهانته ! ! . . التهبت غريزتي فتضاءل ايماني بالأدراك . . . ورأيت الغريزة أقوى من الارادة . . . فها هي غريزة الغيرة تملكني ، والمرأة دائما لا تحب أن تكون هناك امرأة أفضل منها وخصوصا إذا أحست أن القاسم المشترك رجل ، إنما الغيرة تتولد من الحب ، وانا لا احب الرجل فما معنى هذا الشعور ؟ لشد ما أخشى ! ...

وضاق عقلي بفكرى . . . واتسع خيالى لفكرة الانتقام لأطفىء جذوة الغريزة التى تأججت فى ـ كرهت المرأة ، وكرهت الرجل . . ولست أدرى ، أكرهت هذه من أجل هذا ، ام كرهت هذا من أجل هذه ؟.. ارى المرأة امامى فى صورة مخيفة تبث فى نفسى ابشع الخواطر وأرى الرجل أيضا فى صورة وحش لا قلب له يحاول أن يجذبنى باللطف وبالعنف .

على أن ذلك لم يقصنى عن المرأة التى ظلت محتفظة بابتسامتها الحلوة وهدوء نفسها البرىء . انتى لا أمقتها ولكننى لا أحبها أيضا لأنها كانت سببا فى إهانتى . . . لو لم تكن لما قدم الرجل على إهانتى مستخفا بأنوثتى ، غمرنى شعور الانتقام منه ففكرت فى سبيل تحقيقه .

وكان المساء قد أرخى سدوله وأكسب الصحراء وحشة يخفف رهبتها ضوء القمر الفضى ، فصحبتها لأعيد ملابس المرأة العربية وأرتدى ملابسى حتى إذا انتهيت ودعتها ، وأخذت طريقى إلى الخباء الذى أعد لنومنا مفكرة فى صياغة رواية أقصها على رفيقاتى محتفظة بتاريخ حوادث اليوم لنفسى .

ولما وصلت إلى الخباء ، قصصت عليهن حكاية استطعت أن

اخلقها بمهارة تبرر غيبتى طوال اليوم ، وكن يستمعن إلى فى لهفة وطرب لحسن تمثيلى وجمال خيالى الذى ابتدعته باتقان عجيب حتى صار كالحقيقة الأكيدة ..

وبعد أن خلوت بصديقتى الخاصة ، همست فى أذنها ما اضطررت إلى الإباحة به اليها تسهيلا لمهمتى التى انتويت القيام بها . وبعد مدة وجيزة أفهمتها كل شىء ، واستطعنا أن نتسلل خفية بعد أن تأكدنا من نوم الرفيقات . ثم عرجنا على خباء الحارس الذى كلف بحراستنا من قبل الشرطة . واستعرنا منه ملابسه الخاصة غير الرسمية وهى كملابس رجال العرب تماما ، بدعوى اننا نريد أن نرسمها بالقلم لحاجتنا الماسة إلى أخذ فكرة عن ملابس العرب ، ولكى يسهل علينا وصفها إذا عدنا إلى بلادنا . ولم ندع له فرصة للكلام فوضعنا فى يده بعض النقود واخذنا الملابس واوهمناه اننا عائدان الى الخباء . . . ثم تسللنا فى حذر الى الخلاء .

ولما خلا المكان الا منا ساعدتها على خلع ملابسها وارتداء ملابس الرجل ، وقد استطعنا أن نخفى شخصيتها النسوية بمهارة فائقة وساعدنا على ذلك نحافة قوامها ، وخشونة صوتها ، وكبر انفها ، واتساع فمها . وتأبطت ذراعى كأنها حبيب ، وسرنا على عجل حتى

بلغنا كوخ الجمال ، فتكلفنا السير فى بطء وخلاعة ، نتسامر بصوت خفيض كأننا نخشى رقيبا ، وتلفتنا يمنه ويسرة كأننا نخاف غريبا .

وانتظرت أن يخرج من الكوخ فلم يفعل ، فاضطررت ان أغنى ليتنبه ان كان غافلا . وملت على كتف صاحبتى أو على وجه التمثيل « صاحبى » فى شبه دل واستسلام .

جف دمعى يا حبيب فاض حبى والوجيب
ولى بؤسى والنحيب عاد سعـــدى مع الحبيب

انت لي نور البشير

ترشـــــــد القلب المظلل فى الظـــلم
تسكب السقيـــــــا إذا الغيث انهمل

انت لى الأمل الكبير

وهنا فتح الباب ، وخرج منه الرجل بحذر ، ووقف يستمع الى ..... فسكت وطوقت عنق (رفيقى المصطنع) بذراعى وقربت فمى من وجهه . ثم اقصيته عنى فى حياء ، كأن الخفر عندى اشد من اللهفة الكامنة .

وقد مثلت صاحبتى دور العاشق فأجادت حيث قالت محاولة أن بجذبنى إليها فى قوة ، وأنا أصدها عنى فى نية ودلال .... تعالى

ياحبيبتى الى صدرى ابثك هيام روحى ، عل ذلك يطفىء جذوة غرامى تعالى اضمك الى نفسى ضمة لا فراق بعدها .

قلت : وأنا أميل عليه طربا وابتعد عنه حياء . . . لا تجذبنى الى السعير . حسبى ما فى من لهب ، ومد ذراعيه ليطوقنى ولكننى ابعدته عنى فى رفق وأنا اتمتم . . . دع ذلك حتى يجمعنا الله اجتماعا قدسيا . . وقد يكون قريبا . ولم اكد انتهى من قولى حتى فاجأنى الرجل كالوحش المفترس ، وهجم على « رفيقى المصطنع » . فى وحشية وقال والشرر يتطاير من عينيه :

من أنت يارجل .

قال : وما شأنك ؟؟ . . .

وتابعته وانا أقدم يدى لأتأبط ذراع رفيقى ، من اباح لك التدخل فى شأننا . فلم يأبه لقولى ، وجذب الرفيق بقسوة فطرحه بعيدا . . . وساعده على طرحه خفة جسم الفتاة وضعفها أمام قوته الصارمة . فاصطدمت المسكينة بصخرة اسلمتها لأغماء عميق ، انقطعت انفاسها ، وسال الدم من انفها .

يا مصابى .

صرخت بكل قواى ، وارتميت على جسم الفتاة أوارى شعرها

بغطاء الرأس وابكى . وقبل أن اتحرك لأحضار الماء ، كان الرجل قد احضره فنضح وجهها أو وجهه كما يظن .

ورفعت رأسها على ركبتى وقمت باسعافها ، حتى تنبهت وتحركت وتمتمت . . . اشعر بدوار فى رأسى كأنها تهشمت ، واستطعت أن ابحث فى رأسها عن أثر الصدمة فى غير حذر ، لأنه ابتعد عنا خطوة وراح ينظر الى الافق بعيدا كأنه يعانى ازمة نفسية حادة ، ويحاول أن يهدىء ثورته ويسترجع هدوءه أو ليرسم منهجا يريد أن ينفذه حالا .

وفجأة انطلق وجهه ، وبان كأن قسماته خطوطا من العطف والحنان . وتحرك من مكانه ، ثم وقف كأن التردد يساوره ، واقترب منا حانيا على الرفيق ، فوجده بين يدى ، وقد تعمدت ان اقبله امامه فى حنان ، وكأن قبلتى خنجرا صوبته الى صدره ، فصرخ ولكن الصرخة لم تخرج من فمه ، بل ارتدت الى قلبه لهبا اشعل وجداته ، وعاودته ثورته ، وتلمست الغيرة تطفر من كل جانحة فيه ، فقنعت بهذه النتيجة ، واقمت رفيقى من رقدته فى تأدب ولم اشأ ان ازيده جنونا .

ولكنه استوقفنا قائلا : اريد أن اعرف صلة هذا الرجل بك . أنت عذراء مصرية وهو عربى . . . فاشرت الى رفيقى علامة —

اسكت لأعفيه من الكلام — وقلت . . . التفاهم لادين ولا وطن له . . . يا سيدى .

فأطرق برأسه مليا ثم قال : لو لم يصب صاحبك بمكروه لقتلته قلت متهكمة : بأى حق ؟؟..

قال : بالعدل !...

قلت : ومتى اباح العدل قتل برىء

قال : لقد هتك حرمة هذا الوادى المقدس .

قلت : أن الحب يزيده طهرا وقداسة ، فا كتسح الغيظ ارادته وقال موجها الحديث اليه. ايها الشاب ابتعد عن هذه الفتاة والا قتلتك فقالت الفتاة (الرفيق) لن ابتعد .

قال : انى احذرك .

فقاطعته : كلانا حر ياصاحبي

قال : موجها الحديث له — امصمم على التغرير بها ؟

قال : مصمم على حبها وعبادتها (وفى الحق ادهشتنى لهجة الفتاة المتقنة مع اشاراتها وحركاتها)

فقال الرجل : لن أطعنك من الخلف كما يفعل الجبناء. بل اترك لك حرية اختيار السلاح وتحديد الوقت والمكان . فريعت الفتاة وارتجفت ونظرت الى كأنهـــا تستلهمنى . . فضغطت على قدمها بقدمى . . أى لا تخافى .

وقلت : انا التى أحدد لكما الزمان واختار السلاح . . . لكن أحب ان أعرف السبب الذى دفعك إلى هذه المبارزة .

قال : يجب أن يغسل هذا المكان بالدم . . . فليكن دمه او دمى والله يفعل مايريد . فتكلفت الغضب — وقلت . . . انك تهينني ياسيدى وتخدش كرامتى وشرفى .

قال : بالعكس . . . من أجل شرفك أدافع

قلت : انك تضع السم فى كأس شفيف . . ، ياعجبا .

ولاحظت أن رفيقتى ترتعش وتنتفض ، فخفت ان تكون الحمى قد ملكتها . فاستطردت بصوت تشفعه نغمة الرجاء . . . انه محموم الآن : ويجب أن نتصرف .

قال : ساآخذه الى كوخى ، اسهر عليه وارعاه حتى يتماثل الى الشفاء ولن نتباوز حتى يشعر بانه أقوى منى .

قلت : اشكر لك حنانك ، ولكن لابد أن يعود إلى كوخه حتى لايقلق غيابه أمه العجوز . وهنا ارتمت الفتاة على الأرض فى اعياء فتحسستها فاذا بها محمومة ترتجف . فهالنى الأمر وبكيت وفكرت ماعساى أفعل لقد جنيت عليها . ولم يطل تفكيرى . . إذ تقدم اليها الرجل وحملها على أكتافه وسار بها إلى الكوخ ولكننى استوقفته

وحلت بينه وبين الدخول قائلة : هذا لا يمكن ، يجب أن أعيده حالا إلى أمه .

قال : قد تصاب بمكروه إذا رأته على هذه الصورة .

قلت : قد يعيد إليه حنان أمه عافيته . . . وتشبثت بردائه راجية في الحاح ، فأطاع مضطراً وخرج معي يحمل الفتاة على كتفيه ، وتجسمت خطورة الموقف أمامي ، ورحت أفكر في سبيل للخلاص منه حتى لا يفتضح أمر الفتاة . أخيراً اهتديت إلى فكرة . . . قلت له عندما بلغنا شبه غابة من النخيل . . . أشعر بجوع عظيم ومنظر هذا البلح يزيدني جوعا . أيمكن أن تتسلق هذه النخلة القريبة فوضع (الرفيق) برفق على الرمل بعد أن أمرني أن أسنده بذراعي ، ثم تسلق النخلة وراح ينتقي الجيد من البلح حتى أمرته أن يكف وينزل . . . ففعل

وفي الواقع لم أكن جائعة ولكنها حيلة لجأت اليها لكي أهمس في أذن الفتاة — حاولي أن تتمالكي قواك ولو تصنعا كي نتمكن من الخلاص منه حتى لا يفتضح أمرنا . فهزت رأسها بعد أن صعب عليها تحريك شفتيها وعاد ليحمله فقلت له . . . أنا عطشى أكاد أختنق اسعفني بكوب من الماء . فتلفت يمنة ويسرة ، فلم يجد أي مكان قريب فيه ماء .

فقال : ألا يمكن احتمال الظمأ حتى نقترب من أى كوخ .

قلت : رأنا أبتلع ريقى . . . كدت أموت . . . وتباكيت

فراح يعدو مهرولا ناحية كوخه ، وكنا قد قطعنا مسافة بعيدة وما كاد يتوارى عن ناظرى حتى سحبت رفيقتى . . أجرى بها وهى مستسلمة إلى فى اعياء .. متجهة صوب الكوخ من أقرب طريق عرفته ، حتى بلغناه بعد منتصف الليل ، فدخلنا فى سكون وارتمينا على الفراش من فرط النصب ، لانحس ولا نشعر بوجودنا .

اطمأننت لخلاصنا منه . . إنما شغلنى مرض الفتاة .

خلعت عنها الملابس المعارة والبستها ملابس نومها ، وسهرت عليها طوال الليل ارعاها . وقد أفادتها رعايتى قليلا فنقصت الحرارة واستجمعت قواها حتى لاح الصباح فاستدعيت الطبيب ليفحصها وافهمت رفيقاتى أنها أصيبت بحمى طارئة فى الليل ولم أشأ أن أقلقهن حرصا على راحتهن .

وبعد أن فحصها الطبيب كتب لها الدواء وأمرها بالراحة وعدم مغادرة الفراش بعض أيام .

كان من المقرر أن نغادر البلينا فى هذا اليوم ، ولكننا اضطررنا للبقاء من أجلها ، وقضت الليلة أن أظل بجانبها حتى تتعافى ، وبعناية الله تماثلت للشفاء فى اليوم التالى واستطعت أن أخرج معها الروية مالم أره من

الآثار . ونسيت الفتاة ما عانت لاستمتاعها بالهواء النقى وجمال الوادى ، وقد تكون تكلفت ذلك لتشعرنى بالراحة وتطمئنى فقد كانت تحبنى حبا صادقا وتحرص على راحتى حرص الأخت على اختها.

وانا الأخرى نسيت مصابها بما لا زمنى من شعور غامض فقد أحسست بالراحة النفسية لاننى اكتشفت دخيلة صدر الأعرابى وعرفت أنه يحبنى ولولا ذلك لما اهتم بى

وفى طريق الصحراء راحت رفيقاتى تنشدن، وانا لاهية عنهن بهواجس يشوبها الحزن المبهم . فكرة السفر دون أن أرى الرجل كانت شاغلى ولكننى لا اريد أن أره ، فحسبى انتقاما — وحاولت أن اوارى الهم بالغناء .

هذه الدنيا الجميلة ... خير ام للعليلة
فى مغانيها الظليلة ... كل الوان النعيم
صخرها وسط الرمال ... آية فيها الجلال
جوها يسبى الخيال ... جل من صاغ الأديم
أنها حلم سعيد ... يبهج المضنى المكدود
فنها سحر جديد ... عطرها عبق كريم

وطيور صادحات كالحسان الشاديات

لاهيات مارحات صوتها يشفى السقيم

ساعة عند ضحاها تمنح النفس شفاها

جل ربى من حباها فتنة الخلد المقيم

كنت اشاركهن الغنـــاء، لكى لا يشعرن باغتراب روحى متكلفة المرح، والله يعلم اننى سابحة فى الغيب المجهول، كنا نغنى راقصات بحركات ايقاعية على وتر النغم كالزهر إذا تفتح وداعبه النسيم وسط الروض النضير. كان ذلك فى طريقنا الى المحطة لنسافر إلى اسوان. وقضينا الليل فى القطار حتى انبلج نور الصباح، فتنبهنا وما كاد الضحى يستقر فى قلب الأفق حتى كنا فى اسوان.

تبعنا الرائد إلى الفندق وبعد أن تمالكنا قوانا خرجنا نتفقد البلد

ابهى ما أودعه الله سبحانه وتعالى فى بلد من روائع الفن، ما أودعه فى وادى اسوان. قد نشاهد النخيل فى بلادنا فلا يجذب نظرنا، لكن هناك يجذبنا غصبا كأنه قوة سحرية تنطق بجلاء. هأنذا — وهو فى مجموعته — ككلمات مبعثرة مرتفعة عن الأرض لتحكى نشيد السمو فيه مغزى المجد الخالد. أما الصخور ظننتها عند ما لمحتها لأول وهلة أوكار طيور مائية جمعتها يد الخالق الخفية برفق،

فكونت منها شبه قصور حجرية تحجب اسرار الطبيعة الندية. تعانقها الشمس إذا طلعت فتطفر الحرارة من جوانبها كأنها قطع ذهبية أو وهج من حريق فيه ثورة ولهب ، ويحتضن بعضها بعضا فى حنان وشغف . حتى إذا سطع القمر تبدل اللون الثائر إلى الظل الهادىء ، وبانت الفوهات الفارغة كشبه مغارات عامرة باطياف الليل النائمة . ولا يخلو الصخر فى الليل الحالك من روعة المساء الحالم دائما على الصخر قبلة من الضوء مهما تنوع باعثه . مجموعة من رءوس الوحوش الكاسرة المستسلمة للقوة العاتية ، لا تخيف ولا تزعج لأن الظلال الساحرة تلبسها غلالة من الفتنة الباهرة . فتحسبها تناديك بصمتها الرهيب — تعال — فاذا اقتربت منها وأدركت روعة فنها تهيبت ، واحجمت كأن فيها قوة مسحورة تقصيك عنها ، وما هو بسحر يملك انما هو ذهول العقل امام الفن الخالد . كثيرا ما نمر على الرمل لاهين عابثين ، لكن رمل صحراء اسوان لا يدعك تلهو أو تعبث . . . بل يدفعك للفكر لتجد . كأنه سجل الوجود منذ بدأت روح الحياة تسرى فى كيانه . حكايات ما مر من دهور مرتسمة على الأرض فى الذرات المنشورة . سبحانك ربى . . . لقد خلقت فابدعت ورسمت لنا مثل الفن الأعلى وسوف تنتهى الدهور ونحن اعجز من أن نفهم اسراره .

الفصل الرابع

كانت هذه المفاتن كافيـة لأمتلاك حواسى كلها ، لـكن الرجل الجمال الوحشى بقوته الجليل بحنـــانه . كان تأثيره على أعظم من تأثير جمال الطبيعة حتى احسست انى فقدت شيئا عزيزاً ، وندمت على سفرى دون أن أراه . ولـكن ماذا يجدى الندم . . . وحاولت أن اتخلص من خيـاله لأعود الى الأنغماس فى قلب الطبيعة . . . ولـكن هيهات . . .

قوة خفية تدنيه منى وتدنينى منه ، ولا قدرة لى على صدها أبدا ، ولا أنكر اننى كنت احاول أن أتخيله فى صور مخيفة مزعجة بغيضة على ذلك يحول بينى وبين التفـكير فيه . ولـكن شبه مس من الـكهرباء كان يتمشى فى روحى فانتعش وارى وحشيته أجـل من لطف أى رجل لقيته وعرفته .

صح عزمنا على أن نقضى فى أسوان بعض أيام لتوفر أسباب الراحة والمعيشة وجمال الجو وهدوء الوادى ، ولاستيعاب الطبيعة الجميلة ، ولمـــا استعدت راحتى بعد عناء السفر ، عن لى الخروج وحـدى لأتلمس مواطن الفن حيث يطيب لى اكتشـاف المجهول دون دليل .

وأول ما استرعى نظرى الصخور الجاثية فى قلب النيل كزهور تأبى إلا أن تخلد على الزمن حيث هى ، لذلك هرعت اليها وجلست على احداها ، وقد انتثر حوالى بعضها فظهرت كأنى خرجت من باطن أم تأبى إلا أن تحتضنى بذراعيها ، كأنها تخشى أن تفقدنى ، وهاته الصخور المتناثرة منوطة بحراستى . آه . . لو لم يكن فى قلبى ذلك الأحساس الحزين ، لطربت وانتشيت وسعدت بما حوالى من مشاهد . وفنيت بمشاعرى فى ذلك التيه اللا محدود حتى نبهنى تغريد الطيور ، فتنبهت شاعريتى ورحت أغنى :

ياهائما فى كل واد	تشدو بألحان البعاد
رتل لنا اللحن الشجى	من كل فن عبقرى
فى صباح ومساء	وانبعاث واختفاء
أيهذا الطائر	انت معنى حائر
لا تبالى بالحياة	فى أنين أو شكاة
إنما الدنيا هباء	سوف يذروها الهواء
فانج منها فى سلام	قبل أن يطغى الظلام

هو قاى الذى كان يغنى فطربت لألحانه ، كأنه خرج منى ليسمعنى أنغامه .

مربى النوبيون يرتنون أهازيج المرح الطليق . فما أعذب اغنياتهم الساذجة ، فكانها خلاصة الصفاء الذهنى ونقاء القلب الأبى ، رأيتهم كالطيور يلازمهم الأمل والنشاط ويحفهم الطرب والبهجة .

وبدأ الصوت يخفت رويدا رويدا كلما ابتعدوا عنى . . . فاضطررت ان انتقل من صخرة إلى صخرة لأقترب منهم لكى يظل الصوت الحلو فى مسمعى وتواروا جميعا عدا واحد منهم ، خلع هلب المركب الحديدى من الصخرة القريبة منى وتأهب للتجديف فاستوقفته قائلة : ايمكن ان توصلنى الى الجزيرة ولك ماتريد . وأظنه لم يرنى من قبل لأنه دهش عندما سمع صوتى وتأملنى طويلا ثم قال مبتسما بلهجته النوبية العاجلة مامعناه تفضلى . . . فى الواقع لم أفهم الفاظه جيدا ولكننى ادركت مايعنيه من اشارته وابتسامته . فدلفت الى الزورق واخذت مجلسى فى مؤخره مع رغبتى الشديدة فى التجديف . . ولكن عدم ثقتى الموفورة به منعتنى من الجلوس بجانبه . على انه لم يمض بعض دقائق حتى آنسنى ويعث الطمأنينة فى صدرى فانتقلت إلى جواره وعاونته — مشترطة عليه ان يغنى ابان تجديفى . . . فرضى باسما طروبا ، ما ابهى وجه النوبى رغم سواده الحالك . الطهر يتجلى فى ملامحه وتنطق بصفائه اسنانه الملتمعه الناصعة البياض . من يتأمله بحسه وفكره يجزم بأن قلبه قلب نبى لاينشد فى دنياه

غير ما تجنيه بداه . وهما يجنيان مايعود على نفسه بربح روحى فيه أيمان ثابت وقناعة راسخه .

صفاء السماوات العلا استقر فى نفوس النوبيين الملاحين وفى هذه اللحظات سرى الصفاء إلى نفسى فانتعشت ونسيت هواجسى حتى سمعت النوبى يخاطبنى بصوته العميق عندما اقترب الزورق من الشاطىء . إن شئت عدت بك أو أظل معك — قلت وبودى لو استبقيه بجانبى الى نهاية يومى . اذهب وعد بعد ساعة — فأظهر سروره بابتسامته الوديعه وعاد بزورقه ونظره عالق بى . . . هرولت إلى الرمل لأدفن جسمى بين ذراته الناعمه تاركة رأسى وحدها تطالع صفحة الأفق باحثة عن مكان يستقر فيه خيالى ، لأخلو إلى طيف الجمال الغريب . . ومضى الوقت وأنا كالحالمة . . حتى لمحت الزورق يقترب منى ، فايقنت أن النوبى عاد ليحملنى الى اسوان ... فتأهبت وبى من الشوق لرؤيته مالم يدر بحسبانى ان يكون عندما فارقنى . وقبل أن أتأمل وجهه أو أخاطبه كنت قد بلغت قاع الزورق وعندما رفعت نظرى لأحييه واجهنى الرجل الجمال . . . أى دهشة غمرتنى ! ! . .

تلاشى كل ما كان فى صدرى من شغف وحنين وتملكنى الخوف والأضطراب ، وقبل أن اتكلم قفز الرجل ووقف أمامى وجها لوجه قائلا : أخيرا . . . وجدتك .

فصرخت بصوت مرتجف . من أنت ؟ . .

ولقد تجاهلته لأغيظه ناسية كل شيء إلا اهانتى أمام المرأة . . وفى الواقع كان حقدى عليه قد تلاشى ولم يبق فى صدرى غير عاطفة صادقة تقر به منى . . . على أنها لاتمنع عقلى من التفكير فيما حدث واقوى صورة مرتسمة فى ذهنى . . . صورته وهو يتهكم بى أمام المرأة .

لم يؤثر جمودى فيه فظل محتفظا بهدوئه قائلا : أنا .

فهززت رأسى منهكمة وابتعدت عنه غير عابئة .

فقبض على يدى فى عنف قائلا : مهما تجاوزت حدود الجحود فانك لا تستطيعين الفرار منى .

قلت متكلفة السخرية : ماهذه الجرأة . اهكذا تعامل الفتيات المحصنات فى بلادكم .

فقال : اسمعى وافهمى — تعرفين جيدا أنك تركتنى فى العرابة على صورة لاتليق بفتاة عاقله .

فقاطعته : لاتزد . اتهيننى مرة أخرى هل جئت من أجل ذلك ؟

قال : جئت لاكشف الستر الذى يحول دون تفاهمنا

فتمتمت قائلة : ليس ثمة مايدعو للتفاهم ، وصعب على تفهم حقيقته فى هذه اللحظة إذ كيف يتبعنى وقد أهانتى . . اتراه يكذب

على، وبدأت أفكر فى أى الناحيتين يكذب ؟

فان كان تهكمه بى امام المرأة كذبا ، فليس معنى ذلك أنه يصدق الآن ، اذ الذى يكذب مرة من الجائز أن يكذب دائما . وتجسمت هذه الصورة المزعجة حتى نفرتنى منه . فابتعدت عنه صامته .

ولكنه اقترب منى قائلا : فى الواقع لم اتبعك رغبة فيك . . . لكن لأطمئن على الرجل المريض الذى أسأت اليه فى ساعة غضب غير مشروعة ، واختطفته منى وهو فى أشد الحاجة إلى العناية . . . وظننت بى سوءا . . . ونظر الى طويلا كأنه يقول :

اليس كذلك . . .

فى هذه اللحظة مر بخيالى عطفه وهو يحنو على المريض الذى يكرهه ، وتذكرت كل ماقام به نحوه وما اسبغه عليه من عطف وحنان وما تحمله من أجله فى سبيل راحته ، فتضاءل غيظى وتلاشى كل فكر بغيض . عدا تقديره والعطف عليه . ماعساى أقول عن رجل يحسن لمن يكرهه ويحتقره ويجىء من بلد الى آخر ليطمئن عليه يا الجلال قلبه عليه عندما وجده فى حاجة الى الرفق والعطف . لطالما بحثت عن هذا القلب الكبير . . . فلم أجده .

وهأنذا أخيرا أجده . . . انما عند رجل تعتبره الجامعة البشرية حقيرا إذا وضعته الجامعة معى لتقدر حسابه

بأرقام وفق هواها ، لكنه فى ناظرى لا يقل عنى قيمة بل يمتاز برجولته الناضجة وقلبه الكبير المليء بالرحمة الشاملة ونفسه البارة الأبية .

لطفت هذه السوانح مشاعرى فتنبه قلبى ونسيت كبريائى آه . . معذرة . لقد تذكرت . . . أشكرك بالنيابه عن رفيقى

قال : ايس من أجل هذا جئت — وهنا لا يطيب الحديث . . تعالى معى فى الزورق ، لنتنسم العبير ، ونستمع الى الخرير ، ونشدو كالطير فى حى الطهر الوفير .

راودنى الخوف من جديد فأحجمت ، فحملق فى ثم قال : سأحميك حتى من أنفاسى إذا رفت عليك . فلزمت الصمت أفكر فى حيرة وقلق وعاد يقول : أيخالجك شك فى شرفى ورجولتى ، فطفرت دمعة من عينى ولم أتكلم . . . كنت فى أشد حالات الهلع ... أريد ولا أريد . أريد أن أذهب معه إذ بى حنين دفين اليه . وأخاف أن يستغل استسلامى ، كما يفعل النسر بالحمامة الوديعة . وطال الصمت وهو يتأملنى فى سكون ثم قال : فى صمتك معنى للتردد والحيرة .

ثم حملنى بين يديه ووضعنى فى الزورق ، واتجه به على سطح الموج يحمله أنى شاء . فهالنى تصرفه وصرخت :

وحش جرىء . . .

فضحك طويلا ورجع قولى — وحش جرىء ... القاب أفاخر واتمسك باهدابها .

واندفعت أقول بلهجة جنونية ، ان لم تذهب بى الى الشاطىء ، استغثت ورميت نفسى فى النيل فعاد يضحك قائلا : افعلى ماشئت .. فانا قادر على حمايتك من نفسك ومن القدر اذا عاداك .

كان لارادته الحديدية تأثير قوى فعال على . . فشعرت بالضعف يدفعنى الى الاستسلام ، وانتابتنى شبه غيبوبة ردتنى لأجمل الأحلام وهذه أسلمتنى الى مدامع الأشجان . ولا أعرف كم من الوقت مر على ولكننى سمعت صوته يجتاز جنبات نفسى ويستقر على مسرح روحى النورانى قائلا : تكلمى .

فاعطيته ظهرى لأتأمل الموج وهو يطغى على حافة الزورق كأنه يطبع على جوانبه قبلات اللهفة المستعرة . فعاد يقول : ليكن صمتك على أى صورة .. وليواجهنى ظهرك فان معناك يظهر من كل جهة فيك فاعتدلت ونظرت اليه فى غضب متكلفة ، لأشمئز از منه . فقال — سيان عندى ابتسمت أم تجهمت . . حقيقة قلبك لا تتغير . ثم لزم الصمت ليتأملنى ، فملت برأسى بعيدا عنه وبدأت أتأمل عاطفته عن كثب . أرانى أميل اليه ميلا لاشك فيه ، فما الذى حول عاطفتى من الحقد والنفور الى الحب والاستسلام . ودرست مواقفه بعقلى

وقلبى محاولة أن أحلل كل دافع، وأبحث كل تصرف حتى اهتديت اخيرا الى القوة الفعالة التى جذبتنى قد تكون انسانيته التى جعلت منه قلبا كبيرا ووحشا كاسرا .. وحشية ورحمة.. اجتمعتا فكوناه وصارعانى ، فصدعت واستسلمت . فى هذه اللحظة تبدل الوجود امام ناظرى ، وتأكدت أننى أحبه وعاد يقول : اتذكرين الطفل — وكأنه مر بمبضع حاد على قلبى فاحسست برعشة الحمى، وما هى بحمى. ولكنها الغيرة . . . عاودتنى عندما ذكر الطفل فتذكرت المرأة وما أصابنى امامها . . . فخبا ضوء الحب الملتمع واختفى وراء نفسى التى تجهمت فقلت بصوت مختنق :

اجل اذكر الطفل . . . واذكر . . . . وخجلت من ضعفى فصمت وتركت الدموع تنهمر فى سكون بحرارة .

فابتسم وقال : لا تحملى نفسك عبء الجمود

فقلت على مضض : دع السفين ترسو على الشاطىء ، بدأت أشعر بتعب وأريد أن أستريح .

قال : لقد ذكرتنى .

فخانتنى قواى ونسيت تحفظى وقلت : بالمرأة .

قال : أى امرأة .

قلت: أو نسيت هندا .

فنظر الى طويلا واغتصب بسمة مريرة ثم قال : دائما المرأة فى طريق الرجل ، والرجل فى طريق المرأة . انما . . . أى امرأة تستوقف الرجل وأى رجل يستوقف المرأة . . . واحدة ، وواحد فقط — افهمت — من أجل هذه الواحده يجتاز الوهاد والجبال والصحارى والفيافى والبحار. يقاتل الوحوش وبها جم اللصوص .. ومن اجل ذلك الواحد . تقنع المرأة بالفقر تاركة وراء ظهرها المنعة والثراء ، راضية بالحياة فى كوخ حقير ، معتزة بحبها فخورة بحرمانها .

وكأن كلماته مرهما ازاح الخوف عن صدرى فذهب عنى الاضطراب والتردد وخيل الى اننى مع إنسان عاشرته والفته طويلا لا كلفة بينى وبينه

فقلت بصوت لا تشوبه الكلفة :

مهما سمونا بانفسنا فاننا عبيد المطامع .

فقاطعنى . انما هناك فارق بين مطامع الماديين والروحيين ، أتشبهين الرجل الذى يحب المرأة ابتغاء مالها برجل يحب امرأة للحب ، غير مبال بالتقاليد والأوضاع التى تفرق بينهما ـ الأول يصطنع الحب ليعيش بالمال ، والثانى يبذل الحب ليعيش به . تصورى فتاة

لعوب تتزوج من شيخ ترى لتشترى بماله ما تشاء لأنه يسايرها كما تروم وتشتهى . وحبيبة حسناء زكية مهذبة ، تضحى جمالها وشبابها فى سبيل رجل لا يمتاز بشىء إلا حبها .

قالت : ولم لا تقول . . . هذا حظه وذاك حظها ولا حيلة لهما على رد القضاء .

قال : يا فتاتى . . نحن الذين نخلق القضاء ، الله يعلم به قبل أن نخلقه — أن الله الذى نظن قضاء حكمه المبرم . لا يوجه الانسان إلى الفساد ابدا ، أنه لا يحتم على الرجل أن يغدر المرأة ، ولا يدفع المرأة لخيانة الرجل . فنظرت اليه تائهة فى بيداء فلسفته مؤمنة بكل ما قاله ، ولمحت وهجا يلتمع على صفحة الماء ... قلت : انظر الى جمال الطبيعة كيف تشبهه ؟ ولقـــد قلت له ذلك لأعرف مدى تأثير الطبيعة عليه ، فالمس مبلغ حساسيته .

قال بصوت يمازجه رقة الأحساس المرهف — ما عساى اقول لك ، هل احدثك عن الجبل الراسخ كحبى امام الصخور الجاثمة فى قلب الماء كخواطرى الماثلة فى فؤادى ، ام الشروق الذى اراه مجسما فى ناظريك ام الهدوء الذى يصطبغ بعطر روحك .

وانتفض واقفا وهو يقول- آه - لو استطعت أن احمل معبودتى على ذراعى وانطلق بها لنعيش بعيدا عن اباطيل الحياة فنقنع ببساطة

الحياة الصافية فى كنف الطهر الجميل مرتكزين على صفحة الأفق ثم ربط الزورق بالصخر مردفا — هيا نستريح على الصخر مليا تأملى الشمس وهى تعانق الموج فيحمر حياء ، ويتحرك توثبا وقد اكتسب وهج الحريق. اعجبتنى لهجته اكثر من اعجابى بتشبيهه وكانت الطيور ترفرف علينا هابطة من الفضاء تتناغى بلغة السماء — قلت وانا اشير الى الطيور — انفهم ؟؟...

قال — وان شئت اسمعتك نجواها —

قلت — ما احب لغاها ، إنها شعرى .

فاطرق مليا ثم اخرج من وراء (حزامه) شبه ناى وراح يناغيه بانفاسه فسمعت اعذب الألحان . ثم غنى :

قبل السنى يا قلبى قبـــلة الحب يا قلبى
اسكب اللحن يا قلبى من ينابيع الدموع

* * *

غردى يا منى قلبى اسعـــدى بالهوى قلبى
واضيئى دجى قلبى اجلسى بين الضلوع

* * *

خذ فؤادى ما اشتهيت نلت قلبي ما رجوت
لك قلبي ما طلبت من إفانين السطوع

* * *

ودع يا قلبي ذكريات العذاب
نلت يا قلبى امانيك العذاب
حطم يا قلبي تهاويل الجموع
زاحت الآلام يا قلبى حانت الآمال يا قلبى
ودع الأشجان يا قلبى إملأ الكون بنور الشموع

قلت — هه — ايقبل السنى ؟

قال — سناك

قلت — لو انك بدأته .

اشرح الحب يا قلبى واسكب الدمع يا قلبى
نور الهوى يا قلبى شاع من فيض الدموع

لأحسنت

قال بصوت الذاهل

ولو قلته حرمت .. ذاك !!...

هنا تركته فى مكانه ورحت انتقل من صخر إلى صخر فى مرح طليق وقد خلعت حذائى وداعبت الماء باقدامى. وهو واقف صامت يتأملنى فى هدوء ، وقد رسم البشر على وجهه ظلا لا من النور ، ولا انكر انى بعدت عنه لأننى احسست باتجاه عواطفى نحوه ، ولو أنه حملنى بين ذراعيه فى هذه اللحظة ، ونزل بى إلى قاع البحر لما ترددت مطلقا ولهان على الموت . وظننت ان فى البعد عنه قوة تعيننى على صده إلى النهاية . لكن حرارة حبه كانت اشد مما ظننت ، فبلغتنى من بعيد وحولت ماديتى الهادئة الى شفافية ملتهبة وشعرت أن قلبى بدأ يتفتح ويتأهب لاستقبال ضوء جديد ، فخفت أن يداهمنى الحب فى قسوة تدفعنى الى الخضوع . وناداني . . فجئته فقدم إلى طعاما شهيا أظنه كان محتفظا به فى مكان خفى . ولما شبعت قلت له — سر بى ايها الملاح إلى الشاطىء ، فلم يحجم وسار بالسفين دون تردد ، وشملنا السكون وكأن روحينا نسجا حوالينا غلالة من النور ملأتنا رهبة وزادتنا سحرا . . . ولما وقف بنا الزورق مد الى يده فى رفق وسكون ليساعدنى على اجتياز الصخور . ومن فرط مابى من ذهول اخطأت قدماى موضعهما ولم أشعر إلا وأنا ممدودة على ثوبه المفروش على الصخرة البعيدة عن الشاطىء . مبللة الثياب ، مرتجفة الأوصال تلازمنى رعشة باردة . خجلت من نفسى فاعتدلت معتذرة شاكرة له فضله فى ايجاز يشوبه الخجل والاضطراب والذهول

عجيب أن اقع فى الماء ولا أشعر ، واستفيق ولا ادرى! ! . . .
اهكذا الأحساس يملك الأنسان ؟ ؟ . . . حاولت جهدى أن افسر هذا الأحساس ، فصعب على!! كل ما ادركته انى لم اعد قادرة على تكييف حياتى كما اروم . فانا لا اريد أن أساير هذا الرجل ولكننى اشعر ان هناك قوة خفية تدفعنى اليه فى غير تهيب . استطعت بعد لأى أن استعيد قواى ، وحاولت أن اجتاز ما تبقى من صخور لأبلغ الشاطىء ، فلم يدعنى وحملنى بين ذراعيه بعد أن جفف ملابسى على النار التى اشعلها ، وقد استطـــاع ان يجمع الوقود من ورق الأشجار والأغصان الجافة الملقاة على الصخور القريبة من حديقة غناء خصصتها البلدية لنزهة السكان . وهى اجمل ما رأيت من حدائق لاعتمادها صانعها على الطبيعة وحدها فى تنظيمها . حييته واخذت طريقى الى الفندق حتى وصلته قبيل الغروب وصعدت الدرج بخطى متثاقلة كأننى احمل عبئا ثقيلا ، لا قدرة لى على حمله ، متأهبة للوم الرفيقات وعبثهن ومضايقتهن ، فاجأتنى احداهن ــ ظننا الرمل ابتلعك ، وقالت الثانية ــ خيل الينـــا ان الصخر عانقك حتى فنيت فى احضانه ، واردفت الثالثة ــ اوان الموج قبلك فأذابك وتابعت خبيثة ــ ولم لا تقلن رجلا ، وقبل ان تتمتم حديثها ــ نظرت اليها نظرة سكتت بعدها وهربت من امامى ، ودخلت غرفتى وانا

احوج ما اكون إلى الراحة . ظننت أن النوم سيضمنى ثلاث ليال سويا من فرط ما بى من جهد وضنى . . وبعد أن الحت صاحبتى كثيرا تناولت قليلا من الغذاء . لم تكن بى حاجة إليه ولكننى اكلت حتى امتلأ جوفى بشراهة لم اعرفها من قبل .

يقولون ان الحب يولد القناعة فى المأكل . اما أنا فقد كنت شرهة جدا ، ولو قدم الى أكثر مما قدم الى الرجل من فواكه ولحوم وخبز وبقول لأكلته ، من غير أن ادع لغيرى لقمة . حتى الأشياء التى كانت تبدو امامى كنت اتأملها بشراهة . . . واحس ايضا بشراهة ، كأننى تحولت من قناعتى المحدودة الى شراهة غير محدودة . ولم اكد اخلو بنفسى فى غرفتى حتى تصورت ، كل مامر بى يالله — كيف سايرت الغريب ؟ ! . . . وكيف اكلت معه ؟ ! . . . وكيف مت وحييت ؟ ! . . . اعجوبة من عجائب القدر ان اكون أنا الحريصة على نفسى أشد الحرص المتكبرة فى تعفف ، الحذرة فى تحصن ، استسلم إلى هذا الحد أخيرا ، وساورتنى الأوهام فتخيلت مناوشة الأقدار وما يحتمل أن ينالنى من وراء هذه الأخطار ، فحمدت الله على مرور اليوم دون ان ينالنى شر أو مكروه . وصح عزمى على الا اراه مطلقا . ونفر النوم منى بتأثير هواجسى وراحت محاولاتى عبثا فى سبيل الحصول عليه

اخيرا اضطررت أن أقوم من فراشي واتلهى بمنظر النيل الوديع من نافذتي — مستقبلة مع الكون الليل وهو يحطو في بطء يحمل معه السكون والوحشة والأحلام المعطرة بأعذب الأماني .

وفجأة لمحت الرجل يتمشى في الطريق ، كأنه ينتظر انسانا على موعد معه ، ولا يتحول نظره عن نافذتي مع انني لم اخبره عن اسم الفندق ولا مكاني فيه . ولمـــا وقع نظره على رد طرفه واسرع في مشيته حتى اختفى . هو الآخر يريد أن يراني ولا اراه كالأحساس الذي يراودني تمـــاما . وعجيب أن يلازمني القلق طوال الليل ، واتحسس قلبي فلا اجده بين جانحتي . . . وليس من الهين أن احب رجلا كهذا ، لا تجيز التقـاليد الموضوعة صلته بي ، ولا تبيح الأهل معرفتي له . فكرت في عاقبة هذه الصلة . انها بريئة واعتمادي على شرف الرجل أكثر من اعتمادي على ارادتي . فقـد خانتني ارادتي أكثر من مرة . خدعتني حينما اسلمتني للخضوع لمشيئته فقضيت معه سحابة النهار . ولكن شرفه لم يخدعني ابدا ، فقـد حرص على عفتي وكرامتي كما يحرص الأخ على شرف اخته . وكنت احس بحرارة الحب تثير كامن احساسه فيخنقها بالكبت والارادة وأجزم بأن قلبه اعظم من ذاته . ومثل هذا الرجل جدير بالحب والتضحية إنما للتقاليد حكمها وللأسرة أوضاعها . . . ولا بد أن احترم هذه واقدس تلك .

وعاودتني النفرة فانتويت ان اهرب من طريقه الى الابد إنما للخيال تأثيره الخفي الفعال، فقد أعاد إلى مسمعي حديثه بنغمة ممغطسة عن (رفيقي) وقال عقلي انه يتماكر تمعنا في الاغراء بي حينما قال انه تبغى ليطمئن عليه، فهل يمكن هذا ... أبلغ به الطهر الى هذا الحد الملائكي- أليس إنسانا له غرائزه. لا أحسبه إلا خادعا، تعقبه ليقتله، ويغرر بي ليحقق مأربه، كبر مقتا في ناظري.

وتضاءل الشعور المرهق الذي قربني اليه وفي هذه اللحظة كنت كالقانط الذي لا يوجد امامه سبيل للحياة ومع ذلك يطمع في الحياة. يفكر في الموت ويخاف الموت. وبعد عناء استطعت ان أحرر فكري وأنطلق بخيالي في غير دنياه. وبدأت أتهيأ للحياة الجديدة التي جئتها لأستوعب فنونها.

في صبيحة اليوم التالي قمت مبكرة لأهرب من رفيقاتي وخرجت اعدو، منطلقة صوب الحديقة التي رأيتها في الأمس بقرب الشاطىء. وسارت بي قدماي في طريقها الممتد حتى وجدتني في قلب الصحراء المترامية الأبعاد، ومع خلو الصحراء من المارة إلا بعض القاطنين بها، لم أخف ولم أتهيب، وصح عزمي على السير حتى أكشف ما يمكنني اكتشافه. ولفت نظري صخرة طويلة ممتدة، احيطت بشبه صخور اثرية يجلس بقربها بعض الصبية الذين يبيعون تحف

الآثار الصغيرة التى يتهافت على شرائها الغرباء . وسألت صبيا عن تاريخها ، فأخبرنى ان اسمها (المسلة الراقدة) وهى من روائع الفن القديم ، ولشد ما أدهشنى أن تظل راقدة من عهد الفراعنة إلى اليوم. تتطلب فنا لتنتصب وصاحب ذاك الفن يجب ألا يقل عن الفراعنة قوة ومضاء . فهل صعب على مصر مهد الحضارة وأم الفراعنة أن تخلق فردا يتمم بناء أجداده . قد تكون رائعة برقدتها ، لكنها تكون اروع لو لعبت معاول الاحفـــاد بالجسم الذى وضعت هيكله الأجداد .

استرحت على المسلة أتأمل العظمة المتليدة عن كثب . أستمع إلى الصبى الذى حدثنى ، وظل يحدثنى دون ملل بلهجته الاسوانية ، كأنها لحن يوقع على وتر نحاسى . وسمعت وقع أقدام على السلم الخشبى الموجود بجانب المسلة ، فالتفت لأتبين صاحبه إذ خفت أن يكون لصا أو جريئا يحاول أن يداهمنى ، فوجدت « الجمال » رددت طرفى كأننى لا أعرفه . فلم يأبه وتقدم منى قائلا بلهجة صارمة ، كأنه صاحب حق على : من أباح لك الحضور هنا وحدك ؟ ! . . . إنك تخاطرين بحياتك فى جرأة رجل الأربعين الذى خلق كشافا يبتغى من وراء الكشف مأربا عتيدا . فاطرقت برأسى صامتة مفكرة فى

مخرج من هذا المأزق. وأردف يخاطب الصبي — شكرا لك ياولدى، ومد اليه يده بقطعة فضية تناولها الصبي بفرح وراح يعدو كأنه يخاف أن يستردها منه .

ولما خلا المكان بنا ، نظر الى طويلا ثم قال — إنى لا أخاف عليك مغبة تجوالك ، ولكننى أخاف عليك من الذئاب . فانتهزت الفرصة لأغيظه قائلة — إذن ابتعد عنى .

فضحك متهكما قائلا فى خبث ، إن استطعت الخلاص من ظلك فتخلصى منى . فدرت على عقبى ، وخطوت فى هواده بشبه نفور فلحق بى وقبض على يدى فى عنف وقال بلهجة صارمة خالية من الرقة — لا تحاولى الفرار منى . فصرخت فى وجهه — جرىء ... وحش . فضحك ضحكة مكتومة اهتزت معها مفاصله والتمعت عيناه ببريق غريب . ثم تنفس الصعداء ونظر إلى السماء وسرح ببصره ثم رده إلى فوجدنى أجفف دمعة طفرت من عينى ، ولست أدرى أهى دمعة الرعب والفزع منه ، أم دمعة الحب المخنوق ؟؟ .

فاقترب منى وقال بصوت خفيض رقيق — لو أنصفت نفسك أغمضت عينيك حتى لا يكشف سرك ، إنهما يبوحان بما وراء صدرك . فأرخيت جفونى وتمتمت .. أعفريت من الجن أنت ..

سأرحل عن بلاد انت فيها . . . . فتمم قولى — سألحق بك على جناح الأثير ... فانا كما ظننت جن آدمى — قلت — اعوذ بالله منك.

وقامت عاصفة هوجاء محملة بالرمل فأغمضت عينى — فضحك قائلا — أعرفت أن الله معي . فتابعت خطاى ، اقفز كالأرنب من مكان إلى مكان دون كلام ، فسار خلفى صامتا وفجأة هدأت العاصفة وتحسن الجو ، وسكنت الرمال واستطعت أن أسير كما يحلو لى . وانقطع صوت أقدامه من ورائى ، فتلفت خلفى فلم أره ، تنفست الصعداء وحمدت الله . ورحت أبحث عن أقصر طريق يؤدى إلى المـــدينة معتزمة أن أسجن نفسى فى الفندق حتى تنتهى الأيام ، وتراءى لى عن بعد شبحا جاثما بالقرب من إنسان . فظننت معركة قائمة بين غريبين . اتجهت نحوهما وما كدت أقترب منهما حتى وضح لى الشبح . . . إنه الجمال . . . يمد يده بالطعام إلى فم الضرير كأنه طفل صغير . وقفت خلفه أتأمله . رحمة كبرى عجيب... أن تستقر فى قلب بشرى ! وجد الضرير يئن من التعب ويلتوى من فرط الجوع . قعد به المرض عن مد يده ، فعجز عن السؤال إلا بكلمات خاطفة يشوهها ضعف القلب . تركنى وهرول إليه دون أن يخبرنى مفضله على . كان يحمل تحت ثيابه طعامه ، فآثره على نفسه وعلى ، وظل بجانبه يطعمه ويسقيه ، حتى شبع الضرير ، فصحبه من اليد الأخرى

وسار به غير عابئ بى .

احترمت الرحمة ، وقدست البر ، وخشعت امام الحب الانسانى ، فتبعتهما فى صمت وخشوع

ولما بلغنا المدينة سمعته يقول له — اين منزلك ياصاحبى فأجابه أشكرك يا سيدى ، أعرف كيف أصله وحدى . قال — سأظل هنا بعض أيام فان احتجت إلى مال — تعال هنا فى الصباح — سأنتظرك .. . وإذا لم تجدنى . . أعلم إننى غادرت البلدة . ثم أخرج من وراء ثيابه ورقة وقلما وكتب بعض كلمات وناولها للرجل مردفا . . . كلف أى إنسان أن يكتب إلى بهذا العنوان وسأبعث لك ماتريد . وربت على كتفه برحمة وانصرف (بعد أن سلمه ورقة مالية)

تمنيت لو أرتمى بين ذراعيه أستغفره ليباركنى — إنه قديس أى والله . . أى قلب يحمل ذاك الرجل . إنه لقلب نبى . لم أدعه يتكلم بل مددت يدى إليه قائلة — أحيى الرحمة المباركة فيك . فابتسم على مضض وقال — هذا واجب الأغنياء نحو الفقراء . ثم هز رأسه كأنه ندم على قوله واستطرد ، أعنى واجب من يملك درهما ازاء من لا يملكه . فخامرنى الشك فيه ، إنما الشك الذى يرتفع به إلى مصاف الملائكة المقربين ، وعدت من حيث اتيت ، فاستوقفنى قائلا — إلى اين ؟ ! . . قلت — أستلهم الأرض التى شهدت بركة

وعطفك عن حقيقة أمرك، فتخلى عن طريقى وسار خلفى. وامتد بنا المسير حتى بلغنا غابة من النخيل ـ فالتفت اليه قائلة ـ انظر إلى النخيل كيف يحكى بظلاله اناشيد الحنان الرفيع . وعن لى أن أهز نخلة ليتساقط البلح على الأرض ، فأجمع ما طاب منه ، وأقدمه له قائلة ـــ منحت السائل برك ـــ فلا ضير إذا منحتك برى ، فضحك قائلا ـــ برى للحياة ، وبرك للخلود . وعدت أهز نخلة أخرى فلم تهتز فاشتد غيظى ونظرت اليه حانقة متمتمة قائلة ـــ جامدة . فابتسم قائلا : اعرفت ان الجمود يغيظ ، فلم آبه لقوله وانتقلت إلى أخرى أهزها فتساقط الثمر ـــ فرحت ومرحت ، وجمعت ما تساقط ووضعته بين يديه قائلة ـــ هذه كريمة .

فقال ـــ كونى مثلها ـــ ثم فسح لى مكانا بجانبه مردفا ـــ كونى جافة وكونى كريمة ، جافة مع الأفاكين ، كريمة مع المخلصين .

غمرنى النور كأن فوهة الغيب تفتحت عن عالم نورانى البسنى غلالة من شفافية الضياء . فهدأت وجلست بجواره . فقال ـ تعبت ايتها الطفلة . تحاولين أن تكونى قوية وفاتك أن القوة تعصف بكل شىء وتستأثر بالمكابر. فأخجلنى ضعفى الذى تلمسته وعرفته ولزمت الصمت ، فاستطرد ـــ كل معنى فيك عرفت موضعه منك ـــ عدا ذلك السر الهائل الذى يسمونه أنوثة واسميه أنا ـ سر الله ـــ

تناومت لكى لا أجهد نفسى فى الرد عليه ، حيث غمرتنى عاطفة كما يغمر الطوفان الساحل . وأحسست بيده تتلمس الرمل الذى أضطجعت عليه ، فخفت أن تنتقل يده من الرمل إلى . فاعتدلت وابتعدت وأظنه فهم بفطرته ما دار بخلدى فابتسم قائلا — ظمئى وافر — . أريد أن اطمئن على الجسم البض الناعم — هل فى الرمل خشونة تؤذيه ؟ وحاولت أن أتكلم فارتعشت شفتاى ، واختفت الكلمات فى فمى . قال — لو استسلمت إلى سهلت على عبور المحيط ، وقطعنا المرحلة فى لمح البصر . فتكلفت التجهم لأعفيه من الاستطراد ، إذ ايقنت اننى مغمورة بعواطفه فهمست كأننى أخاطب نفسى — أريد أن أموت . وبدل ان يرد لى هدوئى — زادنى ثورة بقوله — ليكن — ستخلدين على أى حال .

فآلمتنى صراحته فقلت — كيف يتفق الموت مع الحياة .

قال — هذا بدء هذه وتلك بدء ذاك — حلقة لا تنتهى الا يوم الحشر ثم طفرت دمعة من عينيه أخجلته لأنه اغتصب بسمة ليواريها مردفا . هه سخف كل مسميات الوجود . وانسرح بخياله بعيدا ، فغاب عن نفسه وعنى وهنا شعرت أنه جذبنى إلى قلبه فى عنف غير لين ، ولكن فى سحر محبب لطيف . وأشهد انه استطاع فى هذه اللحظة ان يملأ فراغ قلبى ، بما يصعب على الرجال لو تضافروا

أن يملئوه فى أعوام . فبكيت ، ودموعى عند ما تنهمر تعبر بصراحة واضحة عن استسلامى وضعفى — ورددت . . . . جبـــار . . . جبار . . .

فعاد من عالم شروده أكثر قوة وأجابنى — أقسم لك أنك لا تحبين فى غير جبروتى

قلت — من ادراك ؟ ...

قال — غريزتك تنشد نصفها المتمم ، فضعفك يستلزم القوة لتحيين ... تصورى رجلا ضعيفـــا مخنثا يخضع لأرادتك ويسير كالأعمى حسب مشيئتك . اصدقينى — اتشعرين أنك فى حاجة إليه . انه كنفسك فهل تنشدين نفسك . ؟...

أحسست أن صراحتى تدعونى للتسليم برأيه . ولـكن كبريائى يقيم سدا منيعا بين رغبتى ورغبته . فتما كرت قائلة — ولـكننى لا أحب الرجل وحشا .

قال — بلهجة الزهو — وانا أفاخر بهذه الوحشية — إنها عدتى ضد هجمات الأعداء

قلت — ولم تعادينى .

قال — نفورك هذا هو الذى أثار فى وحشيتى ، وأقسم لك .. لو لم المس إنسانيتك ، لـكنت حطمتك حتى لا أدع فيك بقية

تشير اليك . وكأن الوحشية ملكته حقا فاستطرد ، بصوت ينم عن صدق أكيد . كنت أمزقك اربا واعب دمك قطرة قطرة ، لأعرف حقيقة السر الهائل الذى جذبنى اليك . فنظرت اليه نظرة اسكتته وحولته من الثورة إلى الهدوء الشامل . فصمت برهة ثم اردف — يا طفلتى . كل شىء افعليه عدا شىء واحد .

قلت — أى شىء .

قال — نظراتك .

قلت — إلى هذا الحد هى مخيفة ؟...

قال — انها كالخمر تسكر وتميت

فضحكت وقلت — عند ما اراك مخمورا اضعك تحت رشاش بغضى وكراهيتى لأننى اكره الخمور والميسر . وصاحبها يعيش على هامش الحياة حيوانا بليدا ، لاخير فيه ولا فضل له على الحياة .

فقاطعنى قائلا — مغريات الحياة اخطر على من الخمر والميسر

قلت — وهل للحياة مغريات غير هذا وذاك ...

قال — النساء .

ولم اشأ أن استرسل فى ذلك الحديث لكى لا تفضحنى خواطرى التى ازدحمت فى ذهنى . وسار امامى فبدا على غير ما ارجو لرجل

أن يسايرنى فى الطريق . فادركت أن للمظواهر تأثيرها على الأنسان مهما ارتفع بتفكيره وعاطفته . ابتعدت عنه وتحاشيت القرب منه مخاطبة نفسى ، قد يكون اقرب الى حقيقة الرجل الذى ارتجيه لو خلع ثيابه التى لا يرتديها غير فقراء الأعراب ، عباءة قديمة تستر ثوبا قديما ، وحذاء لايلائم الرجل العادى على الأقل. ثم نظرت اليه من قمة رأسه إلى اخمص قدمه ، نظرة لمحها فتنحى بعيدا عنى على أثرها ، واغتصب بسمة ثم تقدم منى باحترام قائلا : — بلهجة لا تشوبها لهجة العبودية — انك تحتقرينني لهذا الزى. انما بعد حين، سيتمخض هذا الأحتقار عن يقين يأخذ مكانه فى قلبك ، فتسمينه انت ايمانا واسميه أنا حبا .

ووضحت القوة الروحية ملتمعة فى عينيه ومرتسمة كالظلال على شفتيه ، فتنبهت لكننى تعمدت أن أتلهى بمداعبة الرمل عساه يخفى هواجسى فعاد يقول- الميت يرجو منك الحياة. المحزون يطلب منك الابتهاج ، الوحيد يناشدك الايناس- الجبار يريد أن يهدأ فى محرابك، الضال يرقب هدايتك . ثم سكت وترك انفاسه تتمم باقى خواطره . فاسدلت جفونى على دموعى ، واطبقت شفتى على شجونى، وتخيلت الماضى والحاضر والمستقبل حتى لاح لى فى افق ذهنى ضوء بدد ظلمات اوهامى وهدانى الى مصارحته فقلت — ايها السيد - انت

تحلم بلا مراء ، وسحبت من يده عصاه ألوح بها فى الهواء . كأنها عصا سحرية استمد منها جرأة تعينني على الكلام . ثم أقمت من الرمل جبلا فانهار فقلت مشيرة اليه — هكذا حلمك وهما وخيالا !! ..

فانتصب واقفا ودنا من النخلة وكسر غصنا منها ثم جزأه واقام منه كوخا وظلله بالسعف وقال — ولم لا يكون مثل هذا ؟ ..

قلت — ولكنك بالعنف أقمته !!

فنظر الى نظرة لا أحسبها إلا نورا من شعاع روحه النورانى وقال — ظاهره العنف وباطنه الحب والولاء . لم يكن فى وسعى مطلقا ان احاوره إذ حيرتى كانت أشد من رغبتى .

قلت — غنى — أشعر بضيق يكاد يخنقنى — عسى النغم يروح عنى .

فاخرج الناى وبدأ يتنفس فيه فيجاوبه بأعذب الأنغام ، كأنه يغنى بأنفاسه ، وأنا أغنى بدموعى . حتى أحسست ان الغيب طوانى فحركت يدى وساقى لأتأكد من وجودى ثم قلت — هلم بنا —

وتمشى بى فى طريق جديد انتهى بنا على شاطىء النيل — فلاحت لى الزوارق وهى تطفو على سطح الماء كأنها الطيور الرفيفة . فلما لمح تعلق نظرى بها قال تعالى نذهب إلى قصر أنس الوجود ، إنه من

فى طريق أنس الوجود

اثار الخلود . ولم ينتظر رايي واسرع فاستأجر الزورق ، تبعته في صمت وجلست قبالته في الزورق محاولة الا انظر اليه لكي لا افقد شعوري ، فقد كان مجرد التطلع الى بريق عينيه يحملني على جناحين من نور إلى ما وراء السماء . ورحت اتلهى عنه بمداعبة المياه حتى تمشي صفاؤها في نفسي . وانشغل هو ايضا بخياله وتجلى الشرود على وجهه فنبهته برشاش الماء فابتسم في طلاقة قائلا — آه لو ظل عقلك ابدا غافيا . . . يا سناء . فقاطعته قائلة — ما أحلى الغناء !!

قال — اذن غنى

قلت — نعمك اطرب — استحلفك بالله .

قال — لتكن مشيئتك . . ونظر الى طويلا في حنان كأنه يستلهمني ثم غنى مشركا الناى معه .

يا غرامى اين نمضى اين نمضى يا غرام
يا غرامى قد بلينا قد بلينا بالهيام

يا مياه رجعى
يا كواكب اسمعى
لحن الغرام المسعد

احت السنى بادلينى يا فؤادى اسعدينى
بالأغانى سامرينى فاض حبى اسعفينى

يا طيـور رفرفى

يا زهور هفهفى

فاح حبى الخالد

ويحه لقد ملكنى — يا لسخرية القدر — يواتينى الحب رغم الحذر . ويربطنى برجل عابر سبيل — فيا له من حب خطر .

وقف بنا الزورق على حافة الصخور المحوطة بالقصر ـ فلم ادعه فى هذه المرة يحملنى أو يساعدنى وعدوت وحدى فى سرعة وخفة . ثم دلفنا معا إلى داخل القصر فتركته وسرت وحدى متنقلة من غرفة إلى غرفة ومن ردهة إلى ردهة . ثم صعدت الدرج الخلفى فاذا بى ادخل من باب لأخرج من باب ولا اهتدى إلى مخرج ، وبعد أن يئست التقيت به فى معبد تقديم القرابين إلى الآلهة . فتهلل وجهه وقال

جميل أن القاك هنا —

قلت — ولم حددت . هنا ؟؟ ..

قال — لأقدم لآلهتي قربانى .

قلت — ايها العبد كفرت .

فلم يحفل واستطرد : لم أكن أعرف الله كما أعرفه الآن . لقد كشفت لى عن باعث إيمانى ، كنت أحب الله ، إنما فى جميع مخلوقاته ، أما اليوم فأحبه فيك — أعنى أحب فيك أنت — الحياة بمعانيها الزاخرة الفياضة . فأعرضت عنه ، فقال بينى وبين الخروج قائلا — هنا كان القدماء يقدمون قرابين عبوديتهم إلى الآلهة . فلم لا تكونين أنت قبلة إخلاصى وخضوعى . ألست بشرية صاغك الله ومنح قلبك سناه — قلت متكلفة الغضب — هل جئنا لندرس تاريخ هذه الآثار أم جئنا للغزل السخيف . فابتلع ريقه كأن كلامى وقف غصة فى حلقه ثم تنفس وتمتم — معك الحق ، جئنا للدراسة — تعالى — وقادنى إلى الغرف شارحا لى تاريخ القصر . وأجمل ما فيه — الصناعة الباهرة التى تدل على قوة العقل الانسانى منذ الأزل . فأدهشنى معرفته تاريخ الآثار كأحد علماء التاريخ على أننى شغلت بالتطلع إلى الرسوم .

الصور البارزة على جدر القصر ، تبدو كأن يد الصناعة تركتها منذ لحظة ، والرسوم والهياكل يعانقها الماء الزاخر طوال الشتاء من كل عام ، وهى محتفظة بروعتها ومتانتها — لو كان حديداً لأبلاه الزمن . فأى صناعة هذه !! ؟ يفنى الزمن وهى خالدة .

انتهينا وعدنا إلى القارب وقد لاحظت أن الألم الأكيد لازم نفسه ، فصعب على ، ولكننى لم أشأ أن أكشف له عن رحمتى .

إذ لا بد من وضع حد لهذه الصلة ، ما دام هناك حاجز يحول بيننا وهل يمكن أن أكون غير فتاة خاضعة للتقاليد والبيئة والأوضاع .

ولما استقر بنا المقام فى الزورق قال بصوت خفيض — هل أرجوك

قلت متصنعة الجفاء — ليس ثمة ما يدعو للرجاء

قال — أنت مؤمنة فامنى بى .

فضحكت متهكمة قائلة — أتريد أن تكون نبياً — انتهت النبوة بخاتم الأنبياء محمد ﷺ . أم تراك عيسى جئت من وراء السماء ... إذن اكشف لى الستر عن نفسك ، لأقيم صلاتى فى حضرة النبى الكريم

قال — يا سناء — افرقى بين الجد والهزل

فقاطعته — لا أعرف حدود هذا ولا ذاك . قد يكون فى قلب الجد هزل وفى باطن الهزل جد . اسمع — لا يمكن أن نتفق ... أبداً ... أبداً ...

قال فى جد ورزانة : — لقد اتفقنا وانتهينا ، ولست أسعى لتحقيق هذا الاتفاق . إنما أريد أن أحررك من قيود العقل . كونى عارية النفس ليتسنى لك تفهم الحقيقة .

فشهقت — ماذا تعنى

قال : — أعنى . جردى نفسك من كل قيود المادة ومغريات الأضاليل . إرفعى عنك غلالة التقاليد اللامشروعة حكمى قلبك قبل أن تحكمى عقلك . إذ الأول أودعـــه الله طهر السموات العلا ، فأنت به إنسانة مجنحة . والثانى أضلته المطامع فربطك بالأرض كحيوان ذلول . كان يتكلم بصوت يحفه الجد والوقار ، فأكسبنى أنا الأخرى جده ووقاره .

obeikandl.com

الفصل الخامس

إزداد قرباً من نفسى لأكتشافى نفسيته ، ولكننى لم أستطع تكييف عواطفى وتحديدها ، ولقد دفعتنى فلسفته إلى مصارحته دون خجل أو تردد . فسألته ونحن نتمشى جنباً إلى جنب فى الصحراء عائدين إلى المدينـــة وقد أوحت إلى الشمس وهى تودع الكون متوارية خلف الغيب شبه إحساس عميق يقرب من التصوف — هب أنك أحببت فتاة ، حباً مشبوباً أتظل تعشقها بعد أن تملكها ؟؟..

قال بحدة : بكل تأكيد .

قلت — ولكنهم يقولون ، إن الحب يموت متى تحققت الأمنية والحرمان هو الذى يشعل جذوته .

قال — كذبوا ... ذلك حب الشهوة — أما الحب الروحى فهو خالد ما دام نور الله فى الحياة

قلت : وهل يمكن أن يتجرد الأنسان من شهوته؟؟...

قال — لا تموت . ولكنها تكون أشبه بغذاء عادى ، يمكن استغناء الجسم عنه بميول أخرى — واذا عرفت ذلك أيقنت أن الروح كلما سمت ضعفت شهوة البدن — فأنا مثلا أشعر بلذة لو حرمت من كل لذائذ الدنيا وبقيت هى وحدها فى قلبى لاكتفيت قانعا

بهذه اللذة — هى أن أسمعك أو أراك مجردة من شوائب الحياة ومعزا لأسمك ومعنى لذاك السنى الوضاء.

قلت — لقد خلعت على هذا الاسم كرماً — فأين أنا من السنى

قال : جردى الحياة من الضوء — لا يمكن الحياة فيها

وأنت سنى حياتى

إن السنى العلوى ، ضياء الحياة ، وأنت سنى قلبى .

قلت — مادمت تفهم ذلك — دعنى أسألك كيف تفهم الحب ؟؟

فانحنى على الأرض ومر بيده على الرمل يغربله بأطراف أصابعه ثم بسطه وامرنى بالجلوس لأستعيد قواى ، فأطعته دون تردد وجلست ، ويقينا كنت متعبة فى حاجة إلى الراحة ، وخيل إلى انه فنى فىّ لأننى احسست بجسم غريب كالطائر الوديع يحوم فى صدرى ، فملت برأسى على صدرى كأننى استوضحه الخبر على انه لم يتركنى هكذا طويلا إذ قال — اجيب على سؤالك بقولى — إذا استطعت ان تفسرى لى كيف تفهمين الله ، استطعت بدورى ان افسر لك كيف افهم الحب فراقنى قوله ، بل اطربنى كأنه نغمة موسيقية ، فلم استطع إخفاء سرورى وقلت — قهرتنى

قال — اعرف ذلك منذ أول ليلة رأيتك فيها تحاولين الفرار منى .. إذ الخوف قد يخفى الحب أحيانا

قلت — لا اظن !! .. — لقد خدعت — وان تقهرنى ابدا ، وكنت صادقة فى قولى وعزمى، إذ من المحال ان استسلم له

فعاد يقول — يحتمل أن تخدعينى إذا خدعتك . ولكننى أحبك والحب والخداع لا يجتمعان . والتفت الى بكليته مردفا . إسمعى إن تاريخى معك قصة خالدة على الزمن . لقد احببتك قبل أن أراك . ولما وجدتك كنت كمن جاء برسالة يدعو الى الأيمان بها وهو أشد الناس تعلقا بها وتفهما لها .

قلت بدهشة : يا عجبا وكيف أحببتنى قبل أن ترانى .

قال — جسمك الخيال أمام ناظرى ، واستودعك الأهام قلبى فلما رأيتك على غير ارتقاب أيقنت انك أنت بغيتى وامنيتى .

فقاطعته — إذن حبك وهم خاطىء ؟؟ .

فاجابنى — وما دليلك ! .

قلت — امن غير أن تحكم عقلك تحب ؟

فغرس عصاه فى الرمل وضحك طويلا ثم استرد انفاسه ،وقال بصوت الفيلسوف الحكيم — العقل يبحث عن المسببات والعلل ليقرر النتائج ، وقد يخطىء أو يصيب حسب مقتضيات الحال . وليس من شأنه أن يبحث وراء اللانهاية — لأنه خلق ليسيطر

على الماديات فحسب . ولا قدرة له على تعرف حقيقة الروح إذ التجانس لا بد أن يكون من مادتين متشابهتين ولا يغرنك ما يطالعك به الفلاسفة من ابحاث ودراسات . يظنون العقل خالقها ومكتشفها . . ابدا . . . الحس هو الذى ادركها ، وعمل العقل هنا تسجيل ما حدث بما يسمونه المنطق . اما الروح ذاك الجوهر الأسمى الخالد على مر الدهور هى الرسالة الالهية للحب تحس وترى ما وراء السدم لأنها شفافة إنما تحتاج لتركيز شفافيتها لكى تخلد . ولا يمكن أن تتركز الا بالإيمان المطلق . وذاك الإيمان هو الذى يسمونه « بالحب » .

ونظر الى برفق مردفا — إذا عرفت ذلك يا فيلسوفتى الصغيرة استطعت أن تحطمى اصفاد العقل المادى لتنغمسى فى نور الروح السنى . والآن ايصعب عليك تركيز حبى ؟ .

قلت — ليس هناك ما يدعو لتركيزه .

فابتسم متهكما قائلا — وهل الغاية هى التى تخلق الحب ؟؟.

قلت — أجل

قال — إذن باطل هذا الحب .

فهززت كتفى كأن ذلك لا يعنينى ، وداعبت الرمل باطراف انامل فى صمت فعاد يقول . ان نفسك الصافية لأقدر على معرفة الحقيقة دون تفسير .

قلت ـــ أن الضباب يوارى البدر أحيانا

قال ـــ ليزيد الكون فتنة وجمالا .

* * *

بدأ الليل يرخى سدوله باعثا من لدنه أغنيات الصمت الرهيب. فخفت أن ينالنى من ورائه مكروه ، فسرت على عجل ولكنه تمهلنى قائلا ـ لا تخافى انك فى حماية رجل .

قلت ـــ قد يقابلنا أقوى منك .

قال ـــ لم يخلق الله من هو أقوى منى بعد .

فابتسمت متهكمة وتمتمت ـ مغرور ـ

فاجابنى على الفور ـ أن حبك بعث فى كيانى وروحى قوى العالمين.

وعن لى أن اغيظه فقلت ـ قل لى كم مرة قلت هذا القول :

فقطب جبينه وتنهد قائلا ـ لم أقله الا مرة واحدة ـ الآن فقط .

فنظرت اليه متخابثة وقلت ـ من السخف أن اسألك وأنا اعرف الجواب .

ما أغبانى ـ وهل يمكن أن تقول غير انك لا تحب سواى ، ولم تقل لامرأة انك تهواها عداى .

وهنـــا تفتحت بصيرتى على ما غاب عنى فايقنت اننى هالكة .

صحراء مقفره موحشة ليل حالك ـ رجل جرىء له قوة وجبروت أهنت كرامته، وهتكت رجولته ـ فلا بدأن ينتقم لنفسه وهنا رفعت بصرى إلى السماء متكلمة بغير صوت ـ انقذنى يا رب. ومد الرجل يده بورقة ناولها اياى فى سكون . . . تأملتها فاذا بها رسالة من خطيبى سقطت من حقيبتى عندما فتحتها لآخذ منها منديلى بسرعة واضطراب واظنه كان يترقب أن أحدثه بشأن الورقة ، فلما لزمت الصمت قال ألك هذه الورقة ؟ . .

قلت ـــ اجل من خطيبى .

فريع وقال ـــ خطيبك ؟ لا اظن !

قلت ـــ أننى مخطوبة .

قال ـــ هذا لا يمكن !

قلت ـــ وإذا أمكن .

قال ـــ لن يكون ما دمت حيا .

قلت ـــ أنت تخاطر بحياتك إذ تضع نفسك فى طريق فتاة مثلى.

فزفر زفرة حارة وقال ـ هذا ـ لا بأس .

قلت متهكمة ـ لا تدع عقلك يفلت منك على ضوء خيال خادع

فهز رأسه وقال : حدثينى عن خطيبك .

فتمعنت فى اغاظته وقلت آه ذكرتنى .. لشد ما أحبه ويحبنى ـ وهو رجل ناضج مثقف نابه حساس .

قال ـ فقط .

قلت ـــ وماذا تريد أيضا .

قال بحماسة ـ أهو مؤمن ؟

قلت :ـــ هذا طبيعى .

قال :ـــ كان يجب أن تبادرى بذكر الأيمان، لأعرف أن الصق خواصه ثابته كالعقيدة ظاهرة كالأيمان فى قلبك

« * * »

لا أعرف كيف انتقلت بشعورى من الخوف إلى الأطمئنان . ومن الخبث إلى البراءة . حتى اننى صارحته عن تاريخ خطبتى . ولم أحجم عن ذكر ماحدث بينى و بين الخطيب. كأنه ساحر استدرجنى . وأخيراً قلت ـــ حدثنى عن مغامراتك الغرامية . وأقسم أننى سألته، وأنا خالية الذهن من كل شىء ، مليئة النفس بحسن النية ، ولكى اهيب به إلى الكلام لأنه يميل إلى الصمت دائمـــا . فأقسم أنه لم يحب ابدا .

قلت فى دهشة : مطلقا ؟؟ . . .

فعاد يؤكد :ـــ أقسم لك .

قلت:ـــ ألم تسامر أى فتاة ؟

قال :ـــ كنت أبدد وحشة وحدتى بمجالسة بعض الغانيات فى ملهى أو مرقص ، فاذا مللت الجماعة اتممت سهرتى مع أوفرهن جمالا وأكثرهن استهتارا .

قلت ـــ الا يتطلب منك ذلك كياسة ورقة ومجاملة ، وصياغة حلية براقة من جواهر الحب

قال :ـــ الحب الكاذب .

قلت :ـ آه ـ وهل تظن انك تصدق فى الحب مادمت ألفت صناعته .

فغضب وثار قائلا ـ اسحبى كلمتك .

فظللت هادئة وقلت ـ لا اسحبها بل اعقب عليها . الرجل الذى يكذب على نفسه ، لا يطرق الصدق بابه ابدا . وانصرفت عنه بعدان صارحته ، لك دينك ولى دين . وهنا ابتسم الأعرابى ابتسامة الرضا وقال ـ اعفينا خطيبك من هذا المرض . . اتحبينه ؟ . .

فلم احر جوابا ـ لأنى اميل دائما الى احترام الحقيقة .

قال ـــ : هل افهم من ذلك انك لم تحبى انسانا .

قلت ـــ بل احببت أكثر من مرة ، وكل مرة كنت أرى الحب سرابا . وحب الرجل خدعة ورياء .

قال بلهجة الواثق المطمئن . كأنك لم تحبى !!...

قلت — بل احببت . . . وانهمرت دموعى فاجهشت بالبكاء

قال — يا سنى - ايها الضوء المتألق فى سماء حياتى ، قوليها كلمة واحدة تخرج من فمك طاهرة فتردنى الى جنة الخلد - وهاتى دموعك ، اغتسل بها فتطهرنى من كل رجس اصابنى ، طهرينى بدموعك ، واحرقينى بحبك ، وارفعينى على جناحيك إلى عالمك النورانى لأعيش فى دنيا السنى كما يحلو لى ويطيب .

تأججت العاطفة فى قلبي ، ولم احتمل لهيبها فابعدته عنى فى قسوة وصددته فى عنف وصرخت فى وجهه . تخلى عنى . . . اتركنى . . ابتعد . . . انك تتضافر مع الحب على - وأنا لا اريدكما .

وسكت على صوت غريب يتكلم (مخاطبا الأعرابى)- ماذا تفعل بالسيدة يا رجل ؟ قال ذلك بلهجة نوبية غريبة غامضة لم اتبين الا اواخر كلماتها ، وهو رجل اسود اللون طويل القامة لف على جسمة قماشا سميكا ولم يكشف غير نصف صدره وذراعيه — شعره الخشن الغزير المشعث ، يصوره كأنه من قبائل الزنوج المتوحشة . ولمحت بعض ذرات من الدهن متناثرة على شعر رأسه ، كأن رأسه شجرة ســـوداء تدلت غصونها وظهرت براعم الزهر الأبيض على أطرافها ، وغرس بشعره شبه ابرة عاجية . علمت فيما بعد أنه

يدلك بها رأسه من حين إلى حين لتساعد على افراز العرق . وقد وضع فى طرف أذنه حلقة من النحاس أو الفضة لست أدرى . وكان هذا المنظر وحده كافيا لانقطاع انفاسى . فنسيت وجودى من فرط خوفى ، ولم انتبه الا على صوت الأعرابى وهو يقول له ـ سر فى طريقك يا اخى . فنظر اليه البشارى فى قسوة قائلا ـ سأقوم بحراسة السيدة .

فقال الأعرابى ـ انا منوط بحراستها .

فهز البشارى رأسه وتلكأ وخاطبنى ـ ماذا تأمرين ياسيدتى .

فوجدت الفرصة سانحة للفرار من الأعرابى وقطع صلتى به . فقلت دون تردد ـ إذا كان فى مقدورك أن تصحبنى إلى فندق (ما جستيك) أكون شاكرة لك .

قال : — بكل سرور .

كنت اقيد ذهنى به خلال كلامه مستعينة بلمحاته وحركاته لأن لهجته غامضة تحتاج للتفسير . وبدأت اخطو فى اتزان محاولة أن أخفى ما انتابنى من هواجس مخيفة . وقد سار بجانبى البشارى . لكن الأعرابى حال بينه وبينى قائلا ـ تنحى عنها يا رجل ـ انها تلهو . فصرخ البشارى فى وجهه ملوحا بعصاه فى الهواء قائلا ـ ابتعد عنها والا . . . .

فاندفعت الحمية فى صدر الأعرابى وسخر به :— أمجنون أنت ؟؟
فلم يأبه البشارى وظل يرافقنى ، فلجأ الأعرابى الى قائلا - مريه أن ينصرف انه يظن دعابتك جدا .

قلت — أنا جاده - وهمست بصوت خفيض - لقد انتهت رحلتى معك اشكرك .

قال — يا سناء . . . هؤلاء لا يفرقون بين الجد والهزل .

قلت — أعرف ذلك وأنا اعنى ما أقول .

فاحمر وجهه، وارتعشت شفتاه مخاطبا البشارى بلهجة تنم عما يعانيه من صبر واحتمال - شكرا لك على محاولتك الطيبة ايها السيد. وأعرض عنه ثم مد يده إلى كأنه يقول - تعالى نواصل المسير ليذهب فى طريقه. فامتنعت ولم آبه للرغبة الملحة التى تتفزز لها ملامحه . وظن البشارى أنه يخدر اعصابه ليتخلص منه بلباقة ليخلو له الجو بى

فتمتم بلغته البربرية التى صعب على تفهمها ، ثم افصح عما دار بخلده قائلا - لست بتارك الفتاة لك حتى اموت ، فخير لك أن تتخلى عنها وسوف ارعاها حتى تصل الى منزلها آمنة . فجن الأعرابى وخرج عن وعيه قائلا - اظننتنى اتواضع لك مرضاة لأملك ابتغيه ايها العبد .

ثم جذبنى فى عنف ، وقبل أن يتحرك ، هاجمه البشـــارى وضربه

بعصاه ، فارتميت على الأرض من هول الفزع ، وتبدل صبر الأعرابى إلى جنون صارخ ، فاشتبك مع البشـــارى فى عراك عنيف انتهى بضربة على رأس البشـــارى طرحته على الأرض بغير صوت ولا حراك .

وانتهت الثورة بالسكون الرهيب، وانحنى الأعرابى على جسمه يتحسسه محاولا أن يوقظه بشتى الطرق ، ولكن عبثا ، فقد البشارى الحياة. تلاشت القسوة الطاغية ، وتحطمت الوحشية الفظيعة، وسيطرت عليه الرحمة الكبرى ـ فدمعت عيناه قائلا . ويحى قتلته .

الغرائز البشرية كلها قد تجسمت فى هذين الرجلين . الرغبـــة أثارت جنون الأعرابى ، وتحول بتأثيرها من الطبيعة المحتملة إلى الثورة الجامحة. والذود عن النفس دفع البشارى إلى حتفه .
حرية تقاتل العبودية وكرامة تحارب الجشع . وبعد الثورة ظهرت الرأفة ـ وبعد القتل وضح الحنان ـ فيا للانسان من عقله ، كما هو خير له شر عليه .

هالنى الأمر فتلاشت قواى وأحسست ببرودة العدم تسرى فى شرايينى . الدم يسيل من أنف الميت يبدو كبصيص من وهج الحريق يهدد ويتوعد . والحى القاتل إقترب من الميت المقتول ، يصلى فى

خشوع وسكون . يجمع بين الشهادة والاستغفار . وهل تشفع له الشهادة ، ويدافع عنه الاستغفار . أمام القانون ؟ . أليس الرجل الذى يقاتل فى سبيل الدفاع عن حريته الشخصية كالرجل الذى يقاتل فى سبيل حرية غيره . الحرية لا تتغير ولا تتبدل انما الأفراد والشعوب هى التى تكيفها حسب نزعاتها وهاته المطامع مدعاة للفوضى إذ يقتل كل إنسان من يجترىء عليه . وليت كل فرد يحترم حرية أخيه وفكره . فجميع الحريات تكفل حرية الشعب ، وجميع الأفكار تنفع الأمة ، حتى الأفكار البسيطة الساذجة تؤدى رسالة لا تقل نفعا للانسانية عن أخصب الأفكار المتوقدة .

* * *

فقدت وعيي من تأثير المصاب ، ولست أدرى ماذا فعل الأعرابى بى حتى نبهنى ، ولم أكد انتبه حتى فوجئنا بجماعة من البشاريين يحملون بعض المشاعل لتنير لهم ظلمة الصحراء . وكشفت المشاعل عنا ، فاقتربوا منا . وقبل أن يتكلموا صعقوا لمشهد القتيل فالتفوا حوله يبحثون ويكشفون عن موضع القتل . فتساءلوا والشرر يتطاير من عيونهم لهبا : . . من قتله .. قلت بصوت مرتعش... لا ندرى . هكذا رأيناه . ونظرت إلى الأعرابى بمعنى . . لا تقل : وفى الواقع كان خوفى على نفسى أكثر من خوفى عليه . إذ لو مسه الضر لمسنى

لوجودى معه وقد يعتبرونى شريكته فى الجناية . وعندما انتصب الأعرابى متأهبا للكلام ، ظننت إنه سيلفق رواية ، تبعد الظن عنا. فانتظرت كلامه بفارغ الصبر ، واشرأبت الأعناق إليه فى شغف فقال بصوت رزين فيه قوة النفس الكبيرة : أنا الذى قتلته .

فزمجروا وصرخوا : . . أنت . . . . قال بثبات وحزم . . أجل أنا . . . فصرخت فى وجهه وأنا أشد شعرى بكلتا يدى . . . لا . . لست انت . . لا تصدقوه . إنه يكذب ، لا نعرف من قتله .

واطرق الأعرابى ولعله كان يفكر ماذا يفعل ، وعلى غير ارتقاب. شدوا ذراعيه بحبل متين ، وقيدوا ساقيه ، وجروه على الأرض كما تجر الدواب على بطنه آنا وعلى ظهره أحيانا . فلم أجد بدأ من الأستغاثة فصرخت . . . النجدة . . النجدة . . وماذا يجدى العويل والصراخ والأستغاثة فى الصحراء . بل ماذا يفيد صوتى وأنا وحدى فى ذلك التيه اللا محدود .

وابلائى قتلت رجلين فى لحظة ، من السهل أن يدافع المرء عن نفسه إذا داهمه عدوه جهرة . ولكن ما حيلة المسكين الذى يطعن من ظهره وفى الظلام أيضا على حين غره . هو فرد أعزل ، وهم جماعة مسلحة . ومحال أن يغلب فرد جماعة - تركونى أصرخ دون أى مقاومة

وطبعى الا يخافوا منى أو يهتموا لصراخى وعويلى مهما اشتد. تبادلوا النظرات ثم تهامسوا بلغة لم افهمها ، ولما حاولت اللحاق بالأعرابى المنكوب الحظ ، قيدونى أنا الأخرى . إنما برفق ، وحملنى أحدهم على كتفيه واستدعى الآخر لكى لا أحاول خلاصا. صرخة واحدة خرجت منى دون وعى ، فقدت بعدها قواى . إذ ايقنت اننى هالكة لا محالة ، وتصورت ميتتى الشنيعة ومصاب امى الحزينة وكارثة عائلتى .

مجلس الفتاة
F. WISHSA

الفصل السادس

فى المحبس

لا أعرف ماذا حدث فى طريقى ، فقـــد كنت فى حالة شبيهة بالاغماء وإن كان قلبي لم يتوقف بل إزداد خفقانا . والذى أذكره ان يقظنى وثبت فنبهتنى إلى ماحوالى . واستطعت أن أتأمل الكوخ الذى حبست فيه وقد صنع من الخيش والغاب تقيمه أوتاد وأعمدة من أغصان الشجر . الأرض رملية مسطحة كأنها مهدت للنوم . وأنا وحيدة وبجانبى ذلك البشارى الذى حملنى . ولما فتحت عينى وتلفت حولى مغمغة - أين أنا... أبتسم البشارى ابتسامة صفراء وقال - لاتخافى .. لا تخافى ... ثم أسرع وقدم قنينة من الفخار لم أتردد فى تناولها ، لأن الظمأ كاد يقتلنى ، والرغبة فى الحياة أشـــد من المصاب . ثم أحضر لى أيضا أناء من الفخار به طعام . أظنه خليطا من الدقيق واللبن والسكر . لأن هؤلاء - كما عرفت - لا يأكلون الا نتاج الماعز وما يزرع فى واديهم . وأظنه قد صنعه فى الحال قبل أن أتنبه

تماما ، لأننى لمحت آثار الدقيق وبعض قطرات من اللبن مع بعض ذرات من السكر . .

على أننى لم أستطع أن أتناول الطعام ، وأكتفيت برى ظمئى . وكيف بالله آكل والطعام يبدو فى أنائه كأنه السم الزعاف وهو فى يد الرجل المخيف يبث الفزع فى كيـــانى ، ويدفع البرودة إلى أعصابى دفعا . وأغمضت عينى متناومة لأقيم ستارا من جفونى بينى وبينه . حمامة بين مخالب نسر هكذا كنت . . . وظننت الخداع أنفع من الأستسلام ، فتكلفت اليقظة واقتربت منه متوسلة فى تواضع ، راجية فى الحاح أن يترك مراحى ، وأظن رجائى قد أثر فيه لأن الألم البـــادى على قد ارتسم على وجهه ، وتمتم قائلا - لا حيلة لى يا بنيتى . . . إذ كلفت بحراستك . أنا فى داخل الخباء وزميلى خارجه .

عظمت المصيبة وتجسم البلاء فى نظرى . فقلت بصوت متكسر حزين تخنقه العبرات . . أنا بريئه ، ونسيت الأعرابى ، فلم أذكره بخير ولا شر . فهز الرجل رأسه ولم يتكلم ، ونظر الى نظرة لو صدرت من غير عينيه البراقتين المخيفتين لظننتها نظرة اشفاق . كان بريقها اخاذا ، ولكن وجهه الأسود المخيف يشوه هذا البريق . وغمغمت . . اذن إلى الموت . . . فلزم الصمت . فزادنى ذلك خوفا وضيقا ويأسا فأيقنت أننى هالكة لا محالة . . عاجلا أو آجلا .

ضعفت حيلتي وخبا نور عقلي ، وذهب كل أمل أرتجيه في الحياة . وانتظرت ساعة الموت في هدوء القانط اليائس . وهو هدوء أشبه بغيبوبة العدم . سأموت وسيموت الأعرابي أيضاً - يا للمصاب . - وحاولت أن استعطفه مرة أخرى ، فخانني النطق من فرط الألتياع ، واجهشت بالبكاء . اخيرا بعد جهد استطعت أن أعرف متى أموت وكيف أموت . وهل ميتتي كميتة الأعرابي .

سألته -- متى يموت أخي ؟؟

ولقد كذبت لكي لا يسيء الظن بي ، فقال الرجل انه في عداد الأموات . فصرخت في صرع . . مات . مات . وضربت خدي بكلتا يدي ومزقت شعري . مرددة . . ويحي . . ويحي . فاقترب مني محاولا ان يربت على خدي ولكنني رددته عني . وقد تبدلت من الاستسلام المطلق الى التمرد الجنوني . فرحت اتمرغ على الأرض كالحية التي تتأهب لبث سمها في انسان . وحاول الرجل ان يهدىء روعي ، ولكن مجرد النظر اليه ، كان يزيد ثورتي وخوفي . قلت بصوت كالرعد جلجلة — اصدقني . كيف مات ؟؟ . وهل مات حقا ؟ .

قال في رفق — لم يمت بعد .

الآن يضربونه بالحديد المحمى صباح مساء . ويقطع من لحمه ما يقدم له غذاء .

وضعت يدى على أذنى لكى لاأسمع ما تبقى من حديثه ، صارخة فى وجهه — وحشية لا تطاق كيف يسمحون للوحوش الآدميين أن يعيشوا بين الناس الآمنين — وهل هؤلاء اسوانيون — قال — فى الواقع لا — أنهم من افريقيا القـــديمة — لجئوا الى الصحراء سعيا وراء الرزق ، وخوفا من الأوربيين . عندما حاربت ايطاليا الحبشة وملكتها . خافت هذه القبائل المجهولة ان تطغى عليها المدنية المدمرة ، فلجئوا الى أطراف الصحراء المصرية ، على أمل أن يجدوا فى كنفها الرزق والأمان .

قلت — وأنت ألست منهم ؟

قال — أنا بشارى اسوانى اضطرتنى الظروف القاسية أن أعيش معهم وإن كنت فى الواقع لااقترف جرائمهم وقد أفهمتهم أنه من الأوفق ان تكونى بمعزل عن وفيقك — ومن الخير احبسك فى كوخى تحت أمرهم . فصدقونى وتركونى . ولما جئت بك الى هنا وجدت رجلا منهم يتبعنى ، كأنهم غير مطمئنين الى . وها هو جالس كالكلب الحارس وراء الخباء . وهنا تراءى الينا صوت ينادى الرجل . . فأسرع ولبى النداء وخرج يعدو .

فرحت نخلو المكان منه وأخذت مكان القبلة ، وبدأت أصلى لكى يغفر لى الله ماتقدم من ذنبى . أى ذنب هذا ، أتسبب فى قتل

برئيس . وعاودنى شعور الفزع من فكرة الموت ، رغم ايمانى الأكيد بأن ساعة الموت آتية لاريب فيها ، وهى لا تتقدم ولا تتأخر إلا باذن الله . وبعد جهد استطعت ان استعيذ بالله ، وأصلى . . كم مرة نسيت ما صليته وأعدت الصلاة من جديد . شعور التصوف يملكنى ، والتهيب من الموت يراودنى . فلا أنا منغمسة فى صلاتى ، ولا أنا مستسلمة لخواطر مماتى . فزعت الى الله ، منتفضة ، بقلب يائس ، وروح مهموم . فمسح الله عن صدرى همى ، وازاح عن قلبى يأسى . وتنزلت على فكرة غريبة . سكنت نفسى على أثرها الى خواطرى فرحت أفكر فى سبيل الخلاص . يجب ألا اموت على هذه الصورة وان فشلت فى سبيل الخلاص فلأمت بيدى لا بيد عمرو او بيد حسن ... وقبل ان انفذ ما انتويت عليه دخل البشارى ، واقترب منى محاولا ان يقبلنى . فابتعدت عنه مذعورة مرتجفة فى تشنج صارخ . فلم يرتدع ووثب على كالوحش الكاسر محاولا عناقى وتقبيلى . ولست أدرى أى قوة وهبها الله لى فى هذه اللحظة فقد دافعت عن نفسى دفاع المستميت . . دافعت عن شرفى ، وأى دفاع أشرف من هذا الدفاع ، خير أن يموت المرء ولا يخدش شرفه . ثم وضحت كلمة الشرف ملتمعة أمام عينى . فالهبت ما كان ميتا من كيانى ، واندفعت ارد هجماته بأشد قسوة ، جرحت صدغيه بأظافرى ، فسال الدم بغزارة ، ورفصته برجلى رفصة اردته بعيدا

ثم تبدد خوفي ، وتأهبت للموت . انما يحفني الطهر ليزفني الى القبر ملاك الشرف ، مرتلا على قبري ، ترتيلة التضحية المثلى ، والثورة للشرف الرفيع أعظم من الخضوع للاستسلام المريع . وهنا صرخت في وجهه مرة أخرى مرددة قول الشاعر : —

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

وتحفز البشاري لمهاجمتي عندما سمع هذا القول ، والشرر يتطاير من عينيه . كانهيار الدم من خديه . وما كاد يقدم حتى سمع صوتا يناديه من الخارج ، فتراجع وجفف الدم بالرمل واستعاد هدوءه ، وخرج كأن لم يحدث شيء بعد ان رماني بنظرة الوعيد والتهديد .

وتسللت خفية استمع الى حديثهما من وراء الباب . فسمعت الرجل الآخر يقول له ، قف هنا بجانبي لتأخذ الفتاة راحتها علها تهدأ وتنام حتى الصباح . يالله ، هنا تظهر سلطة الغريزة ، واستخدام العواطف في سبيل الغاية . لم يحمني الرجل رحمة بي أو شفقة علي ، انما لتحقيق مأربه الذاتي وإشباع شهوته . لم يعد الرجل ففهمت من الصمت انه أطاع أمر صاحبه . فشكرت الله سرا وعلانية ، وبدأت انفذ منهجي الذي رسمته ، في حماية الظلام قبل ان يداهمني النور فيفسد علي عملي . ورحت أتلمس طريق الخلاص . على الباب يقف

الحارس . ولما تحسست الجدر فوجدتها غير متينة ، وهنا عاودنى الأمل من جديد . إذ اطمأننت إلى تحقيق مأربى

بحثت عن معول أو ما يشبهه وأخيرا عثرت على قطعة من الحديد . ثقبت بها ثقبا فى أسفل الجدر يسمح لرأسى بالظهور منه . ثم بدأت أوسع الفوهة تدريجيا بحرص شديد وبدون صوت حتى لا يكشف عملى . آه — لو رآنى أقوى انسان يفاخر بقوته ويباهى بها . فى هذه الساعة ، كنت قوة قادرة . وعزما أكيدا وثابا . آه ، لو كان الانسان دائما هكذا لتبدلت نظم الكون فى ساعات ، ولكن لابد ان نضعف آنا ونقوى أحيانا كأن الضعف هدنة للراحة بعد عمل شاق يقوم به العقل مرغما باسم القوة . واستطعت بعد لأى ان أفتح بابا خفيا يسمح لخروجى منه . لكن ماذا أفعل ؟ لو رآنى نفر منهم فى الطريق . ارجو ألا يكون هناك حارس آخر ... رباه — انقذنى — لقد تشعبت الطرق

بدموعى دعوت ربى ، وبقلبى كنت أتوسل وارجوه . وأخيرا اهتديت الى تغيير ملبسى وتبديل صورتى . بحثت فى الكوخ عن مطلبى ، فوجدت بعض قطع من القماش الرث المهلهل . انه يقضى مأربا على كل حال . بقى وجهى ، فأخذت مقدارا من رماد الوقود الذى انضج عليه الطعام الذى قدمه الى آنفا . واضفت اليه كمية

من الدهن وجدته فى اناء قذر كأنه مهمل منذ سنين . ومزجت الجميع مزجا جيدا فتكون شبه مزيج صالح للاستعمال . لشد ما كانت فرحتي عندما وفقت الى ذلك ، وازداد ايمانى بالله . وبعد ان طليت وجهى ، خيل الى أن يد الله بدلت خلقى من حيث لا أدرى ثم خلعت ردائى الخارجى ولففته على خصرى ثم واريت جسمى بالقطع المهلهلة محاولة ان أتقن الصناعة بمهارة لكى لا تكشف حقيقتى ، وشبكت أطرافها بالدبابيس لكى يسهل على المشى والجرى دون خوف من المارة . بقى شعرى ، خفت ان يفضحنى . فضفرته ضفائر رفيعة جدا ، تبتدىء من فوق رأسى وتنتهى بطرف شعرى على طريقة الأسوانيين وتركته متدليا على كتفى مواريا صدغى ، ثم طرحت فوقه قطعة من القماش المهلهل تأكيدا لأخفاء شخصيتى .

كنت أقوم بهذه المهمة مع الحذر الشديد . وسمعت شخير الرجلين فازداد اطمئنانى ، وفاض ايمانى ، وتأهبت للخلاص . استلقيت على بطنى وسحبت جسمى فى هوادة من الفوهة فسهل على الخروج . كانت ظلمة الصحراء ووحشتها كافيان لخوفى واضطرابى . انما أملى فى الخلاص على أى صورة ملأ الصحراء الفسيحة بشبه ضوء أنار نفسى المظلمة فشاع الضوء فى ارجاء الخلاء .

تنفست الصعداء فى طلاقة رغم الأحساس المبهم الذى انتابنى . لكننى تركت نفسى فى حمى الله . أول ما اعترضنى غابة من النخيل

فافزعنى الصوت الذى ينجم من صفير ريح الصحراء فى سكون شامل يحفه الظلام ووجدت المكان الذى استرحنا فيه منذ ساعات. فاطمأننت قليلا وبدأت اتعرف الطريق الذى جئنا منه . أوه — أى خوف كان يراودنى من البشارين ، ومن حيوانات الصحراء ، ومن اللصوص ، ومن حراسى إذا تنبهوا الى فرارى .

وترامى الى شبه صوت غامض فارتعشت واضطربت ولم أجد أمامى مهربا ، غير النخيل فتسلقت نخلة واختبأت فى باطن اغصانها ، وصح عزمى على البقاء حتى الصباح . مضت بعض الدقائق ، والرياح تلفحنى والسعف يلذعنى لدغ ابر النخل ، حتى لمحت أنسانا يمتطى صهوة جواده وهو يمشى على عجل . فعرفته لما اقترب منى . كان من رجال الشرطة (حراس الليل) وقبل أن يبلغنى ، نزلت من على النخلة وتمشيت فى بطء كأننى مريضة كسيحة أعانى ألمين ، ألم الجوع وألم ساقى . وأظنه لمحنى لأنه هرع إلى قائلا ـ قف ـ من أنت .

قلت بصوت خفيض مخنوق ... امرأة عليلة ضلت الطريق .

فترجل الجندى قائلا — منذ متى ؟؟..

قلت — منذ الصباح . جئت من الشلال سائرة على قدمى حيث لا أملك ثمن نقلى بالعربة أو القطـــار أو الزورق . وحان المساء ، فاذا بى ضالة فى قلب هذه الصحراء كما ترى.

قال ــ ولماذا جئت ؟

قلت ــ لأعول ابنتى المريضة فى المستشفى . فصدقنى الجندى وأمرنى أن امتطى الجواد ، فتصنعت المرض وأظهرت أن لا قدرة لى على الحركة . ثم أبديت جهدا كبيرا حتى ركبت على ظهر الجواد، وركب خلفى وترك لجواده العنان . وبعد ساعة كنا فى مدينة أسوان .

عرفت ساعتئذ الشعور الذى ينتاب الغريق عندما تسوق له العناية الإلهية انسانا ينشله من بين احضان الموت. تنهدت لأستروح نسمات الأمن ثم قلت للجندى . شكرا أيها السيد الآن . عرفت الطريق

قال ــ ولكن المستشفى مغلق

قلت ــ البواب أخى ، وفى مقدوره إيوائى حتى الصباح . فاطمأن وساعدنى على الترجل ، وعاد من حيث اتى .

نسيت كل ما مر بى ، ولم أعد أفكر الا فى الأعرابى. لقد نجيت باعجوبة فهل ينجو هو الآخر . لشد ما أخاف عليه . ماعساى أفعل ؟ ... وهل يمكن أن أفعل شيئا أنا المرأة الكسيرة الجناح . وفجأة أحسست أن عقلى يكبر شيئاً فشيئا ، وأن قلبى يتسع رويدا رويدا. ووضحت أمامى جريمتى بجسمة شنيعة. ودفعنى العقل متحفزا بشعور القلب إلى العمل ــ لإنقاذ الأعرابى مهما كلفنى الأمر .

ترادفت خواطرى وازدحمت افكارى ، وأنا سائرة كالتائهة اتلفت يمنة ويسرة . اتخيل أن يداً خفية ستقبض على عنقى فينتابنى من القلق والذعر ما لا قبل لى باحتماله. أخيرا لمحت دار الشرطة عن كثب بعد أن قطعت مسافة طويلة فى الطريق .. فالهمنى عقلى فكرة عجيبة تضخمت حتى دفعتنى مسرعة الى « القسم » . وقد أقبلت عليه وكلى ثقة من نجاحى .

ولما لمحنى الجندى تأملنى فى احتقار ثم غض طرفه، واهملنى كأنه لم يرنى ، فلم يهمنى ذلك وتقدمت أسأله — أريد أن أقابل الضابط النوباتجى وحاولت أن أكسب لهجتى نغمة المرأة الاسوانية فاجابنى بلهجة جافة لا تخلو من الاشمئزاز — ما الخبر ايتها المرأة؟

قلت بتوسل - أريد مقابلة الضابط ترا فعجل بى إليه .

فقال بلهجة الحانق المرتاب - ما وراءك ؟

فساءتنى بلادته وما بدا عليه من سيماء الغباء ، وعدم الاكتراث بى الى هذا الحد الذى لا يتفق مع واجبه المنوط به. واندفعت افسح الطريق لنفسى . فوقف الجندى فى طريقى ، وهو يزجر - مجنونه .

فصرخت فى وجهه - أنت المجنون بأى حق تمنعنى من الدخول؟ وتجمهر الجند والناس حولى على أثر صراخى متسائلين ما الخبر ؟؟...

فأجاب الحارس : مجنونة ! وتبعه آخر يخاطبنى فى احتقار : اذهبى يا امرأه . فنظرت اليـــه فى حقد قائلة بسخرية — غض الطرف عن قذارتى وفقرى . وقم بواجبك كما يتطلب منك العدل والقانون ،فراح يردد - مجنونة ... مجنونة.. فلكزته بقدمى فى ساقه بحركة عصبية ليتخلى عنى ... مغمغة - لا كن مجنونة كما تزعم ، فقال لبعضهم سوقوها إلى الحجز ريثما ينظر الضابط فى أمرها . وتقدم منى آخر محاولاً ان يصحبنى الى الحجز فى عنف . فامتنعت غير عابئة بشتائمهم وسخطهم،معاودة صراخى باعلى صوتى . حتى جاء الضابط مسرعا متسائلا — ماذا حدث ؟ . . . قلت — جنود الأمن فى هذا البلد دعاة للفوضى .

فدهش الضابط ولم يكن أكثر منهم رحمة وكياسة ، فنظر الى فى احتقار مخاطبا الجندى فى كبرياء كأنه ينتزع الكلمات من نفسه غصبا ، ما شأن هذه المرأة؟

قال الجندى — ضربتنى .

وقال آخر — أهانتنى .

وقال الثالث — تريدان تهاجم دار البوليس .

فاشتد غيظى من الضابط المتعلم الذى جعله القانون مصلحا وحاكما عدلا بين الناس ، ولكننى تمالكت نفسى وقلت له بصوت حزين. الا تنقذ الغريق ياسيدى ؟؟...

قال بجفاء يشوبه الجمود وعدم الاكتراث بالناس - اى غريق ؟

قلت — أنا تعبة مما عانيت . أريد أن أقص عليك حكايتى على انفراد لأنها خطرة . فتردد مليا كأنه فى شك مما أقول ، ثم أشار الى جندى وقال له فى كبرياء . خذها الى غرفة النوبتجى ليسمع حكايتها ، واشار الى بالدخول . فابيت وتوقفت قائلة - لا اريد أن يسمعنى أحد الا أنت لتفهمنى جيدا .

فعجب لجرأتى بلا ريب ، وقال فى أنفه — تعالى وسار أمامى بخطوات متئدة ليمثل الكبرياء باجلى معانيها . فضحكت بينى وبين نفسى وقد فهمت أن بين الكبرياء والتواضع درجه .. ترتفع أو تنخفض فى ترمومتر الحياة حسب الظروف والمطامع ، وبدل أن أقص عليه حكايتى كما كان فى نيتى ، شئت أن العب دورا آخر لاهبط بذاك الضابط من سماء كبريائه الى درك الذلة والخضوع . استبقنى إلى مكتبه وأخذ مجلسه ، وقد أرتدى مسح الأنفة والغطرسة والغرور . ولما وقفت بين يديه لم يحاول النظر الى وقال بلهجة لم يظهر منها غير أواخر كلماته كأنها تخرج من أنفه لا من فمه كأن به من الكهرباء مساً أو من فرط ما يعانيه من داء الكبرياء . ويقينا لولا صراخى وتمردى لما استجاب مطلبى . ودفعنى الى الحجز زورا وبهتانا وظلما وعدوانا وكأن هذه النفوس التى تأمر بغير الحق

لا تحس ولا تتأثر، أى لا عواطف فيها ولا انسانية تدفعها الى الرحمة والعدل - وليس من صفات الحاكم أن يكون فاقد العاطفة والأحساس والشعور الطيب ، بل يجب أن يكون أكثر الناس حسا وشعورا وعاطفة ورحمة - لأنه متى قدر ذلك كان له ضمير يحاسبه فيعيش بانسانيته ولا يحيا بوحشيته وبعد أن شمخ بانفه — قال :— ما حكايتك ؟

قلت بصوت بطىء انظر الى .

فرفع نظره فى دهشة مبهوتا - فاردفت - تأملنى جيدا ، انظر الى ملابسى ، انظر الى شعرى ووجهى . فابتسم متهكما وحرك شفتيه ليتكلم : وقبل أن يبدا قلت — انتظر ، لست مجنونة كما تظنون ، وليست لدى القوة الكافية الآن لشرح قصتى . فاذن لى بالراحة حتى أستعيـــد قواى . فهز رأسه ومط شفتيه ثم تمتم لا مانع . وأظنه وافق ليستريح منى ومن قصتى وثرثرتى . ثم أمر الجندى الواقف ان يأخذنى الى غرفة الحجز حتى الصباح . وساقنى الجندى الى الغرفة بتسوه .. وقبل أن ينصرف رجوته بخضوع طبعا ، ليحضر لى ماء يكفى لحاجتى طوال الليل لأننى اشعر بظمأ قاتل . فخرج دون أن يجهد نفسه فى الرد على . وارسل الى قدرا كبيرا ، ولاشك أنه فعل ذلك لكى لا أكرر طلبى ، فيضطر لرؤيتى وهى لاتسره .

فلما خلوت بنفسي واطمأننت، خلعت ملابسي، وغسلت وجهي، واستعدت هيئتي وطبيعتي، وتجملت بعد أن ارتديت ملابسي الأصيلة، ونظرت من ثقب الباب بعد منتصف الليل، فوجدت حارسه قد اسند رأسه على حافة المقعد وقد أسدل الكرى على وجهه ستارا. وخلت الردهة الامنه ولما حركت الباب وجدته مفتوحا. هنا فتحته فى حذر وخرجت منه. ولما بلغت وسط الردهة، تكلفت الكبرياء والأنفة لأجيد تمثيل الدور، ونبهت الجندى بصوت خال من الرقة، قائله أيها الجندى. فذعر وانتبه وما كاد نظره يقع على حتى انتصب مؤديا التحية فى احترام. أفندم — فتنفست لنجاح باكورة عملى وقلت — أين مكتب الضابط؟

قال — هنا يا سيدتى، وأشار بيده فى احترام، وسار خلفى فى خضوع حتى دخلت على الضابط فى غير تهيب، فوقف مبتسما مرحبا، ومد يده مصافحا، وقدم الى الكرسى مرحبا. فجلست محتفظة بكبريائى — متكلفة العظمة قائلة: — لقد حضرت فى هذا الميعاد مستترة بالليل إذ لا يتاح لى الخروج فى النهار، لأقف بنفسى على ماحدث للمرأة التى حضرت منذ ساعات

فابتسم الضابط ونظر الى فى لطف ووداعة قائلا — المرأة هنا يا سيدتى، وكلنا تحت أمرك.

قلت — ماذا تم فى أمرها . ؟

قال أبت أن تقص على حكايتها الا فى الصباح ريثما تستعيد قواها

قلت — ولكن خادمى اخبرنى أنكم اهنتموها

قال — أبداً — وهل تحدث الاهانة فى دار الأمن ؟

قلت بخبث — طبعا هذا لا يمكن !!...

فنظر الى فى إغراء قائلا — يسعدنى أن أتشرف بمعرفة اغانم .

قلت — سوف تعرفنى بعد حين .

قال — ولم لا يكون الآن ؟

قلت متلطفة — وهل لا بد أن تعرفنى ؟! . .

قال — يسعدنى أن أعرف البدر الذى أضاء افق المدلهم .

قلت بصوت رقيق لا زيده جرأة — أنت لطيف . . . لطيف جدا ، فهل يمكن أن تحقق رغبتى ؟؟

قال فى خضوع — بكل احترام حتى لو كان الأمر فوق مقدورى .

قلت — اذن دع المرأة تحضر الآن لنسمع حكايتها سويا .

فاسرع يأمر جنديا باحضارها . . . وسرعان ماسمعنا ضجة هائلة فى ترديد . . . هربت المرأة . . . كان الجندى الحارس هو المسئول أمام الضابط فأمر بسجنه ريثما يكتب له مذكرة لرفعها الى المأمور .

يا للسخرية . . . الأنسانية بمهازلها تلعب أدوارها على عتبة دار الأمن أيضا . ولم يشأ الضابط أن يضيع الوقت فى كتابة المذكرة أو البحث وراء المرأة الهاربة كى يخلو الى . وعاد يقول - سأعرف كيف هربت المرأة وإذا كان أمرها يهمك، سأحضرها اليك بنفسى مهما كلفنى الأمر فاطمئنى واعتمدى على . ؟

قلت — مر بسراح الجندى، إذ لا ذنب له فى هروبها بالتأكيد .

فهز رأسه طائعا وأمر باطلاق سراحه. ونظرت الى ساعتى ثم تصنعت الذعر ووقفت مسرعة وأنا أقول - مضى الوقت يجب أن أعود توا قبل أن يكشف الفجر خفايا الوجود .

قال — هكذا تذهبين على عجل .

قلت متماكرة — سأراك فى فرصة أخرى

قال — أين ومتى ؟

قلت — كما تشاء .

فنظر الى طويلا ثم قال — ما أجملك ، وما الطفك . فصافحته وأنا أقول - شكرا . . . شكرا .

وتأهبت للخروج ، وبينما كان الضابط ينحنى ليحيينى ، محاولا أن يقبل يدى . كنت انظر اليه فى احتقار . ثم قلت بعد أن جلست

ثانية ـ اجلس يا سيدى ، وضحكت طويلا وهو يتأملنى دهشا ثم أردفت ـ أن الانتظار يضيع الفرصة . فظن أننى قد تواضعت فاستسلمت فانتبه بكليته الى مستمعا فى شغف بقية كلامى.

قلت ـ كان من الضرورى أن تستمع الى حديث المرأة ، لتنقذ انسانا غريقا . أما وأنها هربت ، فلا مانع من أن أقوم بالمهمة التى أرسلتها من اجلها. فاسمع الحكاية لتقوم بواجبك الانسانى بما يتطلبه منك القانون والعدل .

فتنفس الضابط كأنه كان يطمع فى حديث آخر ثم تمتم ـ تفضلى فاستطردت ـ خرجت لزيارة الآثار البارحة ، وكان فى صحبتى أعرابى نزل علينا ضيفا . وقد رافقنى كحارس بأمر من والدى وعند عودتنا كان الليل قد ارخى سدوله فهاجمنا « بشارى » محاولا أن يختطف محفظتى فتحداه الأعرابى ليرده عنى . لكن البشارى كان متوحشا فاشتبك معه فى شجار عنيف محاولا أن يقتله . فطاش سهمه وردت الضربة الى رأسه فاصابته والقته على الأرض صريعا واتممت القصة كما حدثت تماما حتى جئت الى النهاية وكيف هربت . وصارحته بما حدث وافهمته أننى أنا المرأة التى احتقرها وازدراها منذ ساعة . واردفت بصوت متزن ، ولعلك تعرف من الآن ان

الظواهر خداعة ، ويجب أن يحكم الانسان عقله وقلبه وان يتريث فى حكمه على الناس لكى لا يظلم أو يسىء فاذا كان صاحب معرفة ومنطق استغل خبرته فى تعرف الحقيقة ـ وإن لم يكن ـ فلينتظر الحادث يعلن حقيقته فى صمت أو ضجة حسب مايتطلبه الأمر وهو فى الحالين لن يخسر شيئا .

والآن أريد انقاذ الأعرابى حالا ـ فخجل الضابط من نفسه واعتذر آسفا وافهمنى أنه لا يستطيع أن يلاطف كل الناس ، إذ هناك تفاوت فى المراكز والطبائع . وقد يستغل بعض الأفراد اللطف ويفسره بالضعف والوهن فيزداد غيا وشرورا .

الفصل السابع

اسرع الضابط فى تنفيذ أوامرى بدقة ، وأمر بعض الجند بمرافقتنا ثم ركبنا جميعا السيارة واجتزنا الطريق بسرعة حتى بلغنا الصحراء وارشدت السائق الى الطريق المؤدى الى محبسى وبدون عناء اهتدينا اليه . فوجدنا الحارسين نائمين فى سبات عميق . فلكزهما الضابط فانتبها . ولشد ما كان فزعهما عندما لحا الجند . وقد أمرنى الضابط أن أختبىء فى السيارة ليتمكن من القيام بمهمته . ثم سمعته يسألهما عنى ، فتبادلا النظر ، ولزما الصمت . دخل الضابط الكوخ وخرج منه يتبعه الجند ثم خاطبهما . الفتاة ليست هنا . إذن أين هى ؟ فصعقا واختلسا النظر ، وبدت على وجهيهما صفرة الخوف متشحة بنقاب الدهشة . وقبل أن يتحركا من مكانهما قيدهما الجند بالسلاسل والأغلال وصوب اليهما الضابط مسدسه قائلا . أين الأعرابى ؟ . .

قال أحدهما — لاندرى

قال الضابط — ستخترق هذه الرصاصة صدريكما فى لحظة ، ان كذبتما . أصدقانى وأنا أبرئكما ، واترك سراحكما ، ولن أصارح أى انسان باعترافكما وسأحرص على راحتكما .

وظل يتلطف بهما ويحاورهما بذكاء يشوبه مكر يتطلبه الموقف

حتى اعترفا أخيرا وقال — احدهما ولعله أقل عناء من صاحبه : إنه يوجد فى الجهة الشرقية خلف الجبل ولابد من إجتياز الصحراء ، ثلاث ساعات بالسيارة ثم ركوب الزورق ساعة على الأقل . وجىء بهما إلى السيارة ، فصعقا عندما رأياني . وتخاذلت قواهما من هول المفاجأة ، فارتميا على المقعد فى سكون بغير حركة .

ومع وقت الضحى وصلنا الكوخ ، وقبل أن نطرق بابه ، ترامى الينا شبه أنين متقطع مع غمغمة أصوات غامضة ، ولم أصبر حتى يلقى الضابط أوامره . بل هرعت أطرق الباب فى عنف فانقطعت الأصوات وسكنت الحركة . فلحق بى الضابط يجذبنى برفق قائلا — استريحى هناك ودعى الأمر لى . فنظرت اليه بمعنى لاأستطيع صبرا وظللت واقفة بجانبه . دائبة على الطرق حتى كلت يدى . ولما اشتد الطرق ، ولم يفتح أحد . أمر الضابط الجند بكسر الباب . وهنا سمعنا صوتا يقول — من الطارق ؟ . . . .

قال الضابط — افتح الباب .

ضعف اللفظ ، وسمعنا همساً وحركة غير عادية . فوضعت اذنى على الباب اتسمع ما وراءه ، فسمعت شبه أنين يخفق ثم انقطع . فاندفع الدم فى وجهى وصرخت فى وجه الضابط أنهم يقتلونه الآن أتنتظر حتى يموت ؟ فثار الضابط وكسر الباب ، وهجم عليهم مع الجند . فاذا بالكوخ

خال من البشاريين عدا الأعرابي كان ممددا على الأرض كالميت تماما وقد وضع على رأسه كمامة سوداء تخفى عينيه وتقيد فمه . ظن الضابط أنهم هربوا من فوهة بالكوخ يحتمل أن تكون مخصصة للهرب فى مثل هذه المواقف . فأمر الجند بتفتيش الجبل الملتصق بالكوخ فقد يكون فيه مأوى لهم ، على أننى هرولت اليه مسدلة عليه معطفى لأستر جسمه العارى الذى رسم الحديد المحمى عليه شارات الوحشية الطاغية وسالت المادة الصديدية من كل موضع محترق . حتى أن الضابط لم يحتمل رؤيته فدمعت عيناه ، ولكنه نفر منه وابتعد عنه ناظراً الى هامسا فى أذنى — ابتعدى عنه يا آنستى قلت — الواجب يحتم على تخفيف مصابه بقدر المستطاع ثم مزقنا الكمامة بعد عناء وفككنا الأغلال التى تقيده وناديته — سيدى ، تكلم اسمعنى صوتك لأطمئن على حياتك على الأقل .

فلما سمع صوتى فتح عيناه بعد جهد ولكنه لم يستطع كلاما . ففهمت أنه من فرط الجوع وبحثت عن غذاء له فى الكوخ فاذا بعض الخبز والفاكهة ملقاة على نضد صغير . فجلست بجانبه والهلع يكاد يقتلنى اضع الطعام فى فمه عل ذلك يعيد اليه بعض القوة . ولما لم يستطع أن يمضغ الطعام قطعته له قطعا صغيرة حتى لا يكلفه المضغ عناء . ثم حاول أن ينظر الى فلم يتمكن وطفرت دمعة واحدة من عينيه أحسست أنها أطبت جسمى . ما ابشعه على

هذه الصورة ، زاغ بصره ، وبدت عظام وجهه بارزة ، واسودت شفتاه وظهر جلد رأسه كأن النار أحرقت شعره . شرب وأكل وقد رجوت الضابط ألا يخاطبه حتى يسترد يقظته ومايعينه على النطق ، من قوته فخضع لمشيئتى . وبعد لحظات أنطلق وجهه المتجهم وأشار بطرف اصبعه الى زاوية الكوخ وتمتم ، هنا يختبىء اللصوص . فأمر الضابط الجند برفع مسدساتهم واقترب من الزاوية فوجد شبه شق بسيط لايمكن تمييزه . ولما مر بيده عليه وجده بابا صنع من بناء الكوخ لكى لايظهر ففتح الباب وهنا انكشف ماوراءه فاذا باربعة رجال قد استسلموا خاضعين لقوة الجند فقيدوهم بالسلاسل وحملوهم إلى السيارة وجاء دور الأعرابى . حاول أن يتكلم فلم يستطع ، وشاء أن يتحرك فلم يتمكن . فأمر الضابط الجند بحمله ففعلوا ، ولما شئت أن أساعدهم قال بعد جهد — ايمكن للحمامة أن تحمل نسرا .

فهمست فى أذنه — بقوة روحها تحمل اكثر من نسر .

صعب عليه أن يبتسم فنظر الى صامتا . كانوا يحملونه وأنا أسير بجانبه قابضة على يده ، ودموعى تنهمر بغزارة . وقد علق نظرى به حتى اكتشفت ماوراء مادة كيانه المشوهة فاذا بروحه أجل وأعظم اذ تجلى الصبر وقوة الاحتمال كانهما خلقا من أجله

وكأن وجودى قد بدد كل ماعاناه ، فظهرت على وجهه رغم شحوبه نضارة الرضى ، وفى عينيه بوارق الطمأنينة ، وعلى شفتيه ظلال البهجة

واحسست عندما سندت رأسه على كتفى لأول مرة فى حياتى بشعور النفس الكبيرة — أجل خيل الى أننى أحمل عبء آلام الأنسانية كلها بقلب أكبر من قلب الوجود ، لو كان له قلبا. وأحسست بزهو أكيد هو اشبه بالأيمان الذى يملأ قلب المؤمن عندما يعتقد أنه أدى عملا خيرا لوجه الله ولغير غاية .

* * *

سيق الرجال البشاريون الى دار الشرطة ، وأودع المريض المستشفى وعدت أنا بعد أن عاودنى الأطمئنان الى النزل غير آبهة بتهاويل رفيقاتى معدة فى ذاكرتى لكل سؤال جواب . سألتنى أقربهن الى — أين كنت طوال النهار والليل . اجبتها دون تلعثم — تعرفت الى صديقة من بلدتى جاءت هنا مع والدها المريض ليستشفى بالدفء وسوف أكون مقيدة بها الى ان تسافر لأنها عزيزة على . ولا ادرى ان كان ذلك قبل رحيلنا او بعده . قالت — كأنك لست معنا

قلت — لا ضير على كل حال ، فتناسين وجودى معكن الى حين وتركتها وآويت الى مضجعى ، ومن فرط النصب نمت نوما عميقا طال أمده حتى ايقظتنى صاحبتى قائلة — مضى النهار وجاء الليل ياسناء . فقمت مضطربة كأن أنفاس المريض رفت على . . . مضى النهار ، وهاهو الليل أقبل وسوف يمضى . ولا اعرف ماذا حل

بالمريض — وابلاءه ، بلاه الحب بى ، وبليته أنا بالعذاب الأليم .
ماذا أحمل للمسكين من ذخيرة غير حنانى ؟ وهل يرفه الحنان آلامه؟

لا يمكن أن نقدر الواقع قبل حدوثه ، لطالما تخيلت الحب وتمنيته ولكن هل شعورى به وحياتى فى عالمه كتخيلى اياه . آه — لو استطعت أن أبدل جحيم المحزون نعيما ، وقلق اليائس أمنا ، وعذاب المحروم سعاده . وآه — لو أستطعت أن أرد لذلك المريض عافيته وهناءه ، وابدل وحشته أنسا ويأسه أملا . لكن من ذا الذى يستطيع أن يؤدى رسالة السلام والحب وحده ؟ فى مقدورى أن الهم وأخلق وأوجه . ولكن ليس فى مقدورى أن أوفق لايجاد ذلك الذى يستوعب الهامى ، ويحقق آمالى ، ويسمو إلى السماك على جناحى .

هذا رجل أعرف أنه يمتاز على الرجال بما يتناسب مع آمالى الكبار ولكنه — آه — ما أشد ألمى حينما اتصور أن الذى أحبنى حبا صادقا اعظم من الرجال نفسا واقلهم مادة . وأنا مقيدة بمادة الأرض ، ولا بد أن اخضع لأوضاعها . الحب كالقدر لا يعرف الأمن ولا الخطر . يجتاز الحب طريقه غير آبه بالاوضاع ، ولا يكترث للقانون . لو سألونى — أى رجل تبتغينه — قلت على الفور دون تردد وأنا انظر إلى السماء — هذا المعنى ياصاح — إنما الحب يفاجئنا على الصورة الذى يقدرها لنفسه لا الصورة التى ارتجيها انا لنفسى . فقد يجيئنى على صورة ملاك كما ارجو . وقد يلقانى على صورة وحش بغيض كرهت أو رضيت . ولا قدرة لى على التخلص منه ، مهما أوتيت من قوة وذكاء

الفصل الثامن

فى صبيحة اليوم التالى ذهبت لأعوده فقيل لى ليست الساعة ميعاد الزيارة يا خيبة الرجاء. ولكن مثلى لا يضيع مسعاها سدى. لابد من حيلة طلبت زيارة طبيبة المستشفى ، فافسحوا الى الطريق . ولما لقيتها بدأتها بتحية ظريفة ثم قدمت لها نفسى . وكانت على شىء لا يستهان به من الرقة واللطف. فأنست بى وتلطفت معى لأنها غريبة . الغريب دائما يحنو على أبناء وطنه ويوليه من نفسه كل بر وحنان . سألتنى عن مصر بلدتها فحدثتها عنها حديثا مسهبا فاقبلت على وبالغت فى اكرام وفادتى . واخيراً قصصت عليها قصة الأعرابى المريض فى ايجاز مقتصرة على ما يهمها معرفته ، ورجوتها أن تساعدنى على معاودته من آن لآن لأطمئن اهله . فلم تمانع وتواضعت ووضعت نفسها تحت خدمتى فى كل آونة . ثم قادتنى الى غرفة المريض ، وتركتنى لتقوم بمهمتها الطبية ، معتذرة فى لطف . ولعلها تعمدت إمهالنا فى إكرامى

دخلت عليه فوجدته مضطجعا كأنه مسترسل فى نوم عميق على أن هيئته افزعتنى حيث لف كل جسمه بالأربطة وكذلك رأسه. منظره يدر الدمع من العينين غصبا ، لكننى تمالكت نفسى متكلفة بسمة ، ودنوت منه رابتة على خده برفق هامسة — أنائم ؟. . . ففتح عينيه بسرعة كأنه كان يرقب مجيئى ، ثم تنهد واعقب نهدته بابتسامة عريضة وتمتم —

جئت ـــ شكراً لك ـــ قلت عليه فى لطف واستشام قائلة ـــ اراك اليوم احسن حالا ـــ

قال ـــ عاودنى الشفاء لما هللت.

فسألته ـــ اتشعر بألم ؟..

أجابنى ـــ أبدا... زال عنى كل ألم ، ولكنهم يحتمون على أن التف بهذه الأشرطة البيضاء ، ثم ضحك ضحكة مريرة واعقب : شكلى مخيف ـ مخيف جدا . أليس كذلك ؟؟

قلت ـــ بالعكس ـ انك تبدو كملاك .

فعاد يضحك ضحكة متقطعة كأن ألمه يحبسها ثم اردف ـ تشبيه جميل لأنه منك . انما الواقع غير ذلك .

قلت ـــ أنت مخطىء إذا حسبت للظواهر سلطانا ، ان روحك لم يمسها الضر ، وقلبك كما كان على خير . فتطلع الى محدقا فى طويلا ثم قال ـــ لقـــد سببت لك العذاب يا سناء . لكن خبرينى كيف تخلصت من الأشرار ؟؟

قلت ـــ لم يحدث لى أى ضرر مطلقا ، احمد الله ما زلت على خير ثم أدركت من احتقان وجهه ، ان الكلام يجهده . فترفقت به ورجوته ان يكف عن الكلام ، واشرت بيدى علامة الصمت . وحاول أن يتكلم . فاقسمت عليه بالله الا يفعل ، والا تركته وانصرفت .

فاضطر أن يصمت احتراما للقسم وخوفا من تنفيذ وعيدى . لأنه يعرف انني لا انثنى عن عزمى إذا انتويت امرا ثم سحب طرف خمارى وقبله كما يقبل العابد غطاء الهيكل المقدس . واغمض عينيه فى هدوء كأن القبلة بعثت اليه حلما جميلا . وخجلت إذ هذه أول مرة يكون فيها جريئاً ولكننى تسامحت لمرضه وأخفيت خجلى فى اصلاح ما اختل نظامه من فرش سريره . وبدأت انظم أدوات غرفته حتى فاجأتنى الطبيبة قائلة فى لطف — استحسن خروجك الآن ، لأن الطبيب سيحضر لعيادته ، ولا احب أن يراك احتراما لقوانين المستشفى . فاطعتها صاغرة شاكرة وودعتها بعد أن القيت على المريض نظرة عابرة تحمل معانى العطف والحنان وقد جاوبنى بمثلها.

ولما بلغت الشارع وجدتنى كالتائهة ، وأحسست أننى فقدت قطعة من نفسى. اتراه هو ذلك الجزء المفقود! ؟. . . وضل تفكيرى إذ وثب احساسى من باطنى الى ناظرى فى صورة مجسمة. كنت اسميها قيلا ، غرامى المجهول . واليوم تلتمع أمامى كالنور راسمة غراما معلوما . ورحت انتقل من مكان الى مكان باحثة عن شىء يسرى عنى ، ويملأ ذلك الفراغ الهائل فى قلبى ، الذى صار كطفل فى حاجة الى من يرعاه. وقضيت النهار كالتائه الجوال، استتر بالظلال إذا فاضت حرارتى ، واستند الى الصخور ، إذا اشتهيت الراحة . أبدد الوقت بالقراءة فى مجلة أو صحيفة. وقد تنتهى المجلة أو الصحيفة،

ويمر الوقت دون أن أفهم من هذه أو تلك شيئا . كنت كالضال الذى يبدأ السير من شارع لينتهى فى بداءته ـ جاهل كيف بدأ وكيف عاد. اجوب الآفاق بخيالى فأرى صورة المريض تملأ افق ذهنى الوسيع ، متخذة قلبى لها مسرحا تلعب فيه ادواوها بمهارة فائقه .

* * *

استطعت أن اجذب الطبيبة الى ، واصل بينى وبين قلبها ، فأحبتنى وراحت تدعونى إذا غبت عنها بوسيطة خادمها . وهى فى الواقع فتاة ظريفة تحب . لم أر غضاضة من صداقتهـــا واستغلال تعارفنا لخدمة المريض . فحرصت على راحته حرصا شديدا ، وقامت بخدمته ، ووضعت خادما خاصا تحت تصرفه ، وانست به هى الأخرى بل اظنها احبته لأننى فاجأتها أكثر من مرة فى غرفته جالسة بالقرب منه ، تسامره فى لطف وتهيب به إلى مكالمتها . لكنه لم يخرج من صمته ولم يحاول مرة أن يبادلها الحديث ، حتى أنا كان لا يحدثنى أمامها إلا لماما . وإن فعل فكلمات عابرة كنسائم الفجر ، تحمل معنى شذاه فى قلبى . ولا تستقر على ذهن أحد سواى ، ومما يؤكد لى أن الطبيبة احبته قولها لى مرة ، وكنا فى خلوة بعيدة عنه .

من هذا المريض ؟ .

قلت لها — اعرابى صديق لوالدى ، جاء هنا لأمر يخصه ، لا علم لى به . فكتب اليه والدى ليرعانى .

قالت — أن نفسه أعظم من نفس أى انسان عادى ، كأنه أمير.

فابتسمت وقلت — وهل يتواضع الأمير الى هذا الحد ؟

قالت — يحتمل ، لقد كان سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه أعظم الناس شأنا ، واوفرهم حرمانا .

قلت — لقد مضى زمن عمر يا صاحبتى ، ولن يأتى الا إذا خرج عمر من قبره .

فعادت تقول — ثم انه يصرف باسراف وبذخ ، ولقد لاحظت أنه يكافىء كل من يخدمه حتى تهافتت عليه الممرضات. والذى أعرفه أن الغنى غالبا بخيل فكيف يتفق هذا الجاه العظيم مع ذلك السخاء الوفير .

فهززت رأسى لأخفى العاطفة التى ساورتنى وتمتمت — قد يكون المرض علته الرحمة .

فاردفت — وهل تظنين المرض يولد الرحمة فى القلب الذى لم يكن رحيما من قبل ؟؟

قلت يحتمل !!

قالت — ابدا - كم من غنى مرض وتعذب ، فاذا عوفى لا يكون أقل قسوة من قبل ولا جحودا .

فأعقبت عليها — لكل قاعدة شواذ .

فقاطعتني — وقد سمعته أكثر من مرة أثناء نومه يحلم همسا . لكنني لم اتمكن من ادراك سره . كلامه لغز — لغز مبهم . انما فهمت أنه محب عابد . وهنا لاحظت أنها تتعمد ضياع الوقت قبل أن اراه فاستأذنتها، ودخلت عليه فوجدته جالسا فى سريره كأنه يترقب مجيئى . فلما لمحنى قادمه ابتسم فى بشر ، واستقبلنى مرحبا ثم صافحنى بحرارة .. بادرنى . رأيتك منذ ساعة . هناك على الصخرة القريبة من الشاطىء ، وأشار بيده حيث كنت .

قلت — ولكن كيف رأيتنى والمسافة طويلة ؟؟

قال — بالمحور .

قلت — افادتنا الصناعة كثيرا .

قال — وأيضا أفسدتنا .

قلت — كأنك ناقم عليها ، مع أنها اسدت اليك معروفا — على الأقل — قربتنى اليك .

قال — يا ساذجة . . . الصناعة كسوة من الحرير يجمل بها الجسم البض الناعم فتزيده بهرا ، وهى فى الواقع لا تسبغ على الجسم أى فتنة . انما الجسم هو الذى يلبسها معناه .

قلت — صدقت - حقا الطبيعة هى التى تمنح الصناعة معناها الجميل القوى - إنما فى خفاء.

قال — الجمال ، اسبغى عليه الذكاء والاحساس - فيبدو لك أكثر روعة من جمال بغير ذكاء وشعور .

وبلغت الساعة السابعة، فاستأذنت وانصرفت خوفا من الطبيب. وهناك على الصخرة التى رآنى جالسة عليها ، جلست . وقد اتخذتها منذ أيام مقرا لخلوتى ، ووطنا لوحدتى . ارقب من فوقها المستشفى وغرفة المريض. وما كدت أن استقر عليها حتى رف على رأسى طيرا كما يتساقط الندى على الزهر. فذكرنى بالمريض، وكأن الطير أدرك ما جال بذهنى . فحلق بعيدا ثم وقف على قمة الصخرة أمامى ، يرنو الى مرفرفا بجناحيه كأنه يسمعنى لحنا خفيا - معناه — تعالى - ولما حوم حوالى استفز عواطفى ، ونبه وجدانى فغنيت .

يا حبيب القلب أقبل ... أسعد القلب الكسير
قد منحنا الحب يرفل ... فى حمى الطهر الوفير
يا حبيبي خذ ودعنى ... ارشف الصفو الجميل
من حنان ليس يفنى ... اصله نبع جليل
قد بلاك الحب قهرا ... لم تنل منه ثوابا

فحسبت الحب شهدا فاذا بالشهـــد صابا

أيهـا الطير الأليف بلغ الألف هيـــامى

واحمل الحب العنيف فى كؤوس من غرامى

كان موعدنا عصر اليوم التالى ، فلما ذهبت اليه ، مررت كعادتى على الطبيبة لأحييها . فقاجأتنى - عوفى المريض . وهو فى الحديقة . انتظرى ريثما أحقن بعض المرضى لكى اصحبك — فلم أدعها تتمم حديثها وهرولت مسرعة اليه . فلقينى طروبا قائلا - لقد عوفيت . فصافحته مهنئة .

فاستطرد — لقد صرحوا لى بالخروج ، ولكننى انتظرت حتى تحضرين ، فنخرج سويا ، والآن هيا نواجه الحياة من جديد .

قلت — الا تنتظر الطبيبة ، فقد كانت تريد أن تصحبنى !

(ونظرت اليه فى خبث)

فقال — لا ضرورة إلى انتظارها - وجذبنى لنخرج .

قلت — اللياقة تقضى بشكرها على الأقل .

قال — يا ساذجة - انى احتقرها .

قلت أنها فتاة طيبة .

فابتسم متهكما - هى مغرورة تحسب نفسها حواء النساء .

قلت — كل امرأة كذلك .

قال — المرأة الغبية فقط .

قلت — انك تظلم هذه الفتاة ، فهل اساءت اليك ؟

قال — بل أحسنت إلى .

قلت — ولم تنكر جميلها ؟ ؟

قال — لم أنكر ، ولكننى امقت المرأة التى ترتمى بين ذراعى الرجل باسم الحب .

ففهمت ما يعنيه وقلت فى خبث — قد تكون محبة .

قال — ياسناء ، وانت محبة ، فلم لاتندفعى كاندفاعها ؟

فتعمدت ان ادافع عنها فقلت ـ انا لم أحب بعد .

قال — المرأة التى لا تحترم نفسها ، لا يمكن أن تحترم حبيبها ، وإذا عجزت المرأة عن صيانة حبها فى قلبها صعب عليها صيانة حب الرجل

قلت — لكنهم يقولون إذا زاد الشعور وفاض لا يستطيع الانسان كتمانه

قال — لا تخلطى بين حب الاضطرار ، وبين الحب الاكيد . يمكن تسمية الأول (الحب المصطنع) الذى تحتمه الضرورة أو الرغبة لأمر ما ، وأما الثانى فهو (تقديس الحب) ، والسمو به الى أعلى عليين . وهنا لمح الطبيبة تعدو نحونا ، فصمت متشحا بنقاب الكبرياء .

فلما اقتربت منا خاطبتنى أرجو ألا تنقطع زياراتك ، ثم نظرت اليه نظرة ؟ لمحت فيها التماع الحب وهى تقول . ويسرنا ان نطمئن دائما على صحة

السيد ، فشكرها فى ايجاز وهم بالانصراف . فاستوقفته قائلة ـ لقد انهيت عملى وفى مقدورى ان أجلس معكما ساعة .

وقال فى جد ـــ شكرا ـ يجب ان ننصرف توا لأمر هام

فهزت الفتاة رأسها فى شبه حركة عصبية محاولة أن تخفى عواطفها وقالت بصوت خنوق ـ مع السلامة . .

ومدت يدها لتصافحه. ولما صافحتنى احسست باهتزاز أعصابها، فتألمت لها وازددت سخطا على القدر. لا يترفق بقلوب العذارى

* * *

سرنا متجانبين على مهل فى الطريق المؤدى الى الحديقة العامة . كل منا سارح فى عالمه ، مسحور بأحلامه . ولما وصلنا المنتزة قادنى الى خميلة تشرف على النيل ، وأمرنى بالجلوس على مقعد بحيث يرى أحدنا الآخر ونرى النيل سويا ولا يرانا أحد . ولكننى فضلت أن نجلس فى الهواء الطلق بعيدا عن الاشجار الكثيفة فأبى. ولما سألته عن السبب قال ـ يراك كل من يدخل الحديقة

قلت ـــ لقد رآنى كل الناس فى الطريق .

قال ـــ نظرة خاطفة لا تضير، لكن هنا الماء والخضرة وأنت

قلت ـــ وماذا يهمك؟

قال — جردينى من الحب ، ثم سلينى هذا السؤال .

قلت — آه ـ لقد ذكرتنى بحديث الطبيبة .

فتجهم وجهه ، ولم يشأ ان استطرد ، فلم اكترث وتابعت ـ لقد سمعتك تهذى بمن تحب . !!

فانطلق وجهه وقال ـ وهل يخفى الزهر عطره ؟ أو يحبس البلبل شجوه ؟ ـ واطرق . . وهنا خلق الطير أمامنا ، فنظر اليه مغمغما ـ ذكرتنى ياطير . . وكانت نغمته حارة . أيقظت مشاعرى

قلت — ألك معه حكاية ؟

فاتجه نحوى قائلا ـ رف على مساء البارحة طير كهذا ، وأنا غارق فى أحلامى ، فايقظنى بقبلة على جبينى ، واستطعت ان اقبض عليه برفق ، فاشجانى ـ وأسمعنى أعذب الأغانى .

فدهشت وقاطعته ـ عله طائرى نقل اليك خواطرى ، ولكنه طائر جرىء ، وأنت تنكر الجرأة فى الحب كما تقول .

فقال بصوت الفيلسوف المتزن ـ الطبيعة لا تعرف الجرأة ولا الحياة ، انما التقاليد هى التى خلقت الغضاضة ، أو الشرائع كما يقولون الحمام يقبل بعضه بعضا على الدوح ، والموج يقبل الموج وتعلق القطرة بالقطرة كأن بينهما صلة لا انفصام لها . ولا حرج على هـــذا ، ولاعيب فى ذاك . انما نحن نحرم على أنفسنا كل شىء باسم الشريعة ،

والشريعة فى الواقع لاإثم فيها لأنها تنزلت من السماء إنما الناس هم الذين شوهوا العقائد والشرائع ونسبوا اليها الأباطيل واسموها حقا مشروعا. خذى مثلا ـ الشريعة لم تحرم زواج الغنى بامرأة فقيرة ـ أو تبيح زواج امرأة جميلة من رجل دميم من أجل المال. بل بالعكس اهابت بالناس الى الحكمة والعدل والرحمة والحب والبر والولاء. ومعنى ذلك انه لا فارق بين غنى وفقير، وجميل ودميم، وعظيم وحقير. وانما الفارق فيما يؤديه كل فرد من عمل خير أو شرير.

نعرف ذلك وننكره لنعيش كما يرومون. ثم رفع صوته فى جد مردفا ـ لقد علمتنى الحياة بعد هذه التجارب، التى دفعت ثمنها من دمى. انه ليس هناك قوة يفاخر بها الانسان، ليست هناك قوة فرديه مطلقة. القوة للجماعة دائما ـ ولو كنت مشرعا، لكونت من كل فرد جماعة قائمة فى نفسه. عندما داهمنى البشاريون، استسلمت لهم لأننى فرد أعزل. ولو اننى كنت على استعداد لهذه المواجهة، لما أصابنى ضر، وقوة الفرد الحرص والحذر والمكر والقوة والشجاعه

فقاطعته ـ أيمكن معرفة الغيب؟

قال ـ لا تفكرى فى هذه المخدرات، احذرى من كل شىء، حتى من نفسك. الغيب لا يمطر بلاء ولا شقاء. نحن الذين نعبد له الطريق، ونهيء له الحياة. كان يجب أن افكر قبل أن نجتاز

الصحراء . انه يحتمل ان نضل الطريق ، ويحتمل أن يداهمنا اللصوص ، ويحتمل ان يسيء بك الظن مجنون غبي ، ويسيء بي الظن جاهل امي . فلو انني أعددت العـــدة لمواجهة كل الماسي ، لما أصابنا مكروه . كان يجب أن نفكر في النتيجة قبل أن نقدم .

قلت ـ اوه ـ لو كان الأمر كذلك ، لما مس الضر انسانا .

فاجابني ـــ ورغم ذلك فلست بحزين إذ تعلمت مالم اكن أعلمه وهكذا ياسناء . من الآلام نتعلم الحكمة والفلسفة ، ونخرج من المصائب والمحن ، بقلوب رحيمة أبية ، وأرواح خيرة .

وهنا توقفت عن المسير قائلة ـ حاذر أن يمتد بنا المسير الى الصحراء المجهولة .

فضحك قائلا ـــ وهي ذلك ـ فلن يحدث اكثر مما حدث .

قلت في الواقع نحن نجونا بمعجزة .

فقاطعني قائلا ـــ لان في الأجل بقية ، فآمني بالله أشد الايمان ، واعلمي أن الله يحمينا اذا شاء ولو تألبت علينا قوى العالمين . ونظر الى الأفق الوسيع ثم تنهد بحرارة واستطرد . لطالما تمنيت وأنا أسير بجانبك في الصحراء ان يمتد بنا الطريق الى الأبد . وان نفقد أنفسنا فيه فنتحول من ماديتنا المحدودة الى الشفافية اللا محدودة . فضحكت وقلت ـ اوه ـ لو كان للانسان ان يكون كما يريد أن يكون ـ لتغير

الكون فى كل يوم ملايين المرات بعدد الرغبات . ولكن اتحسب اننا نكون أجمل من ذلك ، لو انفصلنا عن عالمنا الإنسانى ، وغلاشينا فى ذلك التيه اللا نهائى .

ومرت بخاطرى أحلامى فاردفت - اسمع تمنيت مرة ، أن أكون نسمة أو نجمة أو زهرة . واليوم لا أتمنى الآن أكون أنا ، وعلى هذه الصورة التى جعلت انسانا يحبنى ويضحى بحياته فى سبيلى . وها قد تغيرت عقيدتى من الشك والحيرة الى الايمان والاطمئنان ولم أشأ أن أصارحه مع أنه كان فى مقدورى ان اتحدث له عن عاطفتى . ولكننى خجلت واستحيت ورايت حبى اجل من أن يصوره منطق ويصوغه عقلى

ثم أطرقت رأسى لأخفى مدامعى . ففهم وتجاهل وحاول الا يجرح حيائى ، فلزمت الصمت برهة .

فقال — حسبك - حسبك - اخشى عليك من فلسفة حسك -

قلت — وهل للحس فلسفة ؟ انهم يقولون ان العقل هو الذى يستخرج الخفايا من باطن الحياة ويسميها فلسفة

قال — تلك هى الفلسفة الجافة . أما الفلسفة الحية الشاعرة ، فهى من آثار الروح يا سناء . وانا اؤمن بان الانسان هو قلب الحياة أعنى هو الفلسفة الضالة التى يبحث عقل الحياة عنها وقد يتقمص هذا العقل فى ذات الانسان فيبحث عن نفسه فى نفس غيره

فعدت أقول بلهجة الطفلة الساذجة ـ انك تعلمنى من حيث لاتدرى فزدنى ـ ثم استوقفته ونظرت اليه نظرة عجلى مردفة ـ حدثنى عن الفلسفة طويلا .

فضحك وقال ـ الفلسفة لاتعلم ياسناء ، انها الحقيقة التى يختطفها القلب الحساس من وراء اللامدرك .

قلت فى بلاهة ـ وماذاك الذى أسميته اللامدرك ؟

قال ـ هو ما نسميه السر المجهول . ويقول الدين انه علم الله أو الغيب ، فهززت رأسى كأننى لم أفهم ، وتطلعت الى الأفق انظر اليه كأننى ، استوضحه جلاء هذا الأمر .

ولم يدعنى أفكر طويلا فقال ـ التفى بمائة رداء ان شئت .. فانى اراك بهم جميعا عارية .. فحملقت فيه دهشة قائلة ـ وكيف ترانى عارية وأنا ملتفة فى مائة دثار ؟ ! . . انك تخيفنى !!.

قال ياصغيرتى .. ان الصناعة لا تغلب الطبيعة ابدا : ابدا . . . فالفيضان اذا طغى هـــدم الجسور . لكل شىء طبيعته ، وطبيعة الانسان لا يمكن ان يخفى طبيعته . قد يكون من السهل عليك ، ان تلبسى مسوح الكبرياء والأنفة والبلاهة والغباء وكل ما تتطلبه مواقفك فى الحياة . ولكن ليس فى مقدورك ان تخفى انوثتك وتسترى عاطفتك أعنى حقيقتك .

فسرحت بذهني أفكر فيما قاله وهو ينظر الي ليرى تأثير كلامه على وأخيرا قلت .. ان الانسان لا يكون عارى النفس الا امام شيئين لا ثالث لهما - الموت - والحب .

فابتسم قائلا - أعرفت الآن اننى اراك عارية النفس، أنا أعرف نفسك ، فحدثيني عن نفسي ، انك ترينها اكثر مما اراها . فنظرت بعيدا كالحالمة استعيد صورة بعيدة المدى عميقة الأثر لها في صدري تمثال . ثم تململت وغمغمت بلهجة اليأس .. اذا عجزت عن تصوير شعوري الذي أحس بحرارته تسري في شرايني .. ايمكن ان اتحدث عن شعورك أو نفسك على حد تعبيرك ؟ واستوقفته ليسمعني جيدا ، كأنني أريد أن اسمع العالم كله صوتي. فأردفت - ان تصوري يؤكد ان صدق الحب اسمى من جميع اللغات ، وأجل من كل التصويرات . والانسان مهما أوتي من الفطنة والمعرفة ، لا يمكن تصوير عاطفة صادقة شغلت قلبه ، وملكت ذهنه ، الا بذلك المنطق القاصر المحدود الذي لا يمس غير القشور ، ولا يمكن ان يدرك ما وراء اللباب. ولعل السبب يرجع الى أن الانسان في حالة الحب الصادق يكون في شبه غفوة حسية . يسمع ويرى ويحس ولكن لا يدرك تماما الوقائع الا بعد أن يتنبه من غفوته . لقد قرأت عشرات المرات ، أجمل ما كتب عن الحب في رسائل غرامية كتبت إلي ، واشهد انني أخذت بها.

أخيراً يتمخض الواقع فيما بعد عن انها كانت صورة للأخيلة الرائعة التي يتسلى بها ذهن الكاتب طائعا واحيانا تكون أحبولة من حبائل الخداع والتغرير .

فقاطعني — ان الحب ياسناء يؤدى رسالته فى الخفاء . ثم يعلن حكمه فى ضجة غير هياب بالأغلال والسيوف، ولا بالقدر لو تحداه .

وهنا مر بنا جماعة ، فنظروا الينا فى ريبة . فخجلت واحجمت عن المسير كأن هذه النظرة ردتنى الى صوابى ثم قلت : ياعجبا — هل فى مشيتنا مايريب ؟؟

فابتسم قائلا — رجل وامرأة .

قلت — الا يتسرب الى الذهن انك أخى — وخجلت فصمت . ولست أدرى كيف مر بى ذلك الخيال. فليس من المعقول حقا، أن يكون أخى أو زوجى ، فهو بملابس رجل بدوى فقير، وأنا بملابس فتاة مصرية متحضرة. على انى تنبهت الى هذه الحقيقة فاستطردت — عد بنا، إذ يجب ان أعود الى النزل توا ، وسوف أخبط لى رداء كملابس نسائكم كى ارتديه كلما جئتك. ثم تركته وهرولت أعدو وحدى غير آبهة بندائه، فلحق بى قائلا بصوت خفيض ماذا دهاك ؟؟

قلت بصوت مرتجف — إنى أخاف

قال — ان الفرد الذى يعرف كيف يغالب جماعة بذكائه ، لا يخاف الحياة ابدا . انك اقوى منى ، فكيف تخافين هؤلاء دونى .

قلت ـــ لا استطيع ان احتمل نظرة ريبـــة من مخلوق . ولا أحب أن يشوه طهرى بسوء الظن .

قال بحنان اكيد ـ ياسناء لابد فى الطريق من شوائب وتعثرات ، فغضى الطرف وسيرى فى طريقك آمنة .

وترقب كلامى ، فلم افعل . ولزمت السكوت حتى وصلنا شارع البحر العام ، فأخـذت طريقى الى النزل دون أن أحييه ، على اننى سمعته يقول لى فى شبه همس . باكر صباحا عند الخزان .

* * *

صح عزمى على ألا ألقاه ابدا ، لقد انتهت رسالتى إذعوفى والحمد لله . تشوهت اخيلتى ، وخبا ضوء احلامى طوال الليل . النظرة المريبة تتجسم امامى ، فتبعث الرعب فى كيانى . مر الليل بخواطره وهواجسه ودلف النهار من وراء الأفق بآماله الحسان . ولم يكد يطالع النهار وجهى حتى مستنى كهرباء الرغبة العنيفة ، فاندفعت ارتدى ملابسى بسرعة كأننى على سفر ، واخشى ان يقوم القطار .

ولما شعرت بوجودى فى الطريق ، هاجم عقلى قلبى وعاد بى الى الأحجام ، واستبدت بى الحيرة . مضى على الميعاد ساعة ويزيد ، إذن لاشك انه ينتظرنى . لا القلب يهجع ، ولا العين تدمع ، والعقل شارد حيران . يافتاة الخلو رويدك . سمعت هذا النـــداء يجاوبه

الفضاء . أى صوت انبعث من الغيب فاشجانى . وأى حنين انسكب فى القلب فطوانى .

أنت .

بغير وعى قلتها عند ما فاجأنى الأعرابى .

فقال — لا اسألك ، لم أخلفت وعدك . انما اسألك ، لم تحاربين قلبك فلم اجب من فرط ما دهانى من اضطراب وخوف . وتحفز الحب يطالعه من عينى والألم يطفر على شفتى . فتركنى وغاب عن نظرى دون أن يتكلم .

حمدت الله الذى خلصنى منه ، وايقنت أنه لم يعد يحتمل جودى . وتابعت خطاى بقلب ثائر وعقل شارد وجسم محموم . ولم تكد تمر بضع ثوان حتى عاد فى سيارة . ولما اقترب منى ترجل وامرنى بالصعود . فارتبكت وترددت ثم انتهى تردد بأن احجمت ، واشد ما أدهشنى أنه هو الذى يسوق السيارة .

قال بجد — اعتمدى على الله .

فنزلت كلمته بردا وسلاما على قلبى ، واشعرتنى بالطمأنينة الهادئة .

قلت — اسائق أنت ؟ . . .

(ودار بخلدى أنه اكتسب هذه الصناعة بعد تمرين طويل ، لأنه

يسوق كما رأيته بمهارة سائق ممتاز — إذن لابد أنه احترف هذه المهنة فيما مضى)

ثم ابتسم فى مرارة وقال ـ أجل ـ

قلت — ومن أين أتيت بها .

قال استأجرتها .

قلت — وهل يعتمد الناس هنا على أمانة مجهول مثلك ، فانت كما أعرف لست من هنا .

قال — دفعت لصاحبها تأمينا ريثما أعيدها له .

قلت — قيمة هائلة بلا ريب ؟

فعاد يقول — اركبى .

قلت — اعتذر

قال ـ لم اشأ أن احضر سائقها ، لكى لا تحجمين بدعوى الخوف الذى يعتريك كلما واجهت غريبا . فراودنى الشك وتوجست خيفة منه ثم نفرت عنه قائلة ـ لن اذهب معك ، ودرت على عقبى ميممة وجهى شطر الميدينة مبتعدة عنه ، فاقترب منى واستوقفنى قائلا ـ الشرف لا يهمكنه غير صاحبه . فاذا كنت مؤمنة بطهارتك واثقة من عفتك ، تعالى معى . اما إذا كنت تلبسين مسوح الفضيلة كذبا

ورياء ،فاذهبي فى طريقك (كالسهم صوب الى صدرى هذا القول. فان اقدمت انتصرت لقوتى وشرفى وارادتى ، وان احجمت اتهمت نفسى بالأثم والبهتان والضعف

ولما اخذ مجلسه فى السيارة فى هدوء وكبرياء صعدت على اثره قائلة- إذهب الي الجنة أو جهنم . لتكن مشيئة الله . وجالت بخاطرى شتى الأحاسيس . وتصورت مستقبلى ومايمكن أن يكون فى بردى الغيب وبدأت افكر من جديد فى ما آلى بعد أن قطعت السيارة بنا شوطا بعيدا حتى بلغنا الخزان .

* * *

وقفنا على سطح الخزان نتأمل الموج ، وهو يعانق بعضه بعضا فى ثورة وحنان . ثم تمشيت فى تهيب اتأمل بدائع الطبيعة الفاتنة ، وهو يتبعنى فى سكون . وكأنه بصمته بعث فى ذهنى سوانح الحاضر ومخاوف المستقبل . فارتميت على الصخور المنبسطة بقرب العيون التى تتدفق منها المياه . واشرت اليه بالجلوس ففعل ثم قلت - صمتك اصبحت أخافه إذ ينقلنى إلى عالم غريب !

فقال بفتور — احمد الله .

فاغتظت ولكننى تكلفت عدم الاكتراث وقلت - تبالك -

فقال دون أن ينظر الى ـ بدأنا !!!

قلت ـــ نتناكر ـ لنفترق .

فلم يجب وسحب طرف ردائى القريب منه ، واخفى به وجهه ليقبله . فاحسست أنه لم يقبل الرداء ، بل قبل فؤادى فانتعش وارتعش على اننى تمالكت نفسى ، وتحصنت بقوتى مستمعة اليه وهو يقول ـ اجادة أنت ؟ ...

قلت ـــ كل الجد ـ هذه النهاية المحتومة ، أولم أقل لك أنه حلم نهايته فى بدايته .

فقاطعنى ـــ لا ياحبيبتى .

وكانت هذه أول مرة يدعونى بها هكذا . فاضطربت واندفع الدم الحار فى وجهى . لقد قرأتها مسطورة الوف المرات وسمعتها منغومة مئات المرات ، ولكننى لم اسمعها ابدا كما سمعتها الآن . ولم يندفع الدم فى وجهى أى نداء محبب سمعته أو قرأته . فما بال كلمته تدفع الحياة كلها الى جسمى . ايقنت أن الكلمات لا تؤدى رسالتها الا إذا صحبتها حرارة قلب خافق .

واستمر يقول ـ ليس هذا التاريخ حلما كما تظنين ، أنه حقيقة واقعة صادقة ، لن تنتهى ابدا . لأن الله رسم عليها علامة البقاء .

الأزلى ـ فقاطعته والدموع تجول فى ماآقى، وتختلج بتأثير حرارة شفتى ـ أنت واهم ـ

فاحتد قائلا ـ لا تعرف الوهم غير القلوب المريضة ، وأنا قلبى سليم مؤمن صريح لا يعرف غير الصدق لأنه لا يقنع إلا بالواقع .

فوثب اعتدادى بنفسى من مكمنه فى قوة ، وملكنى غرور الصبا وكبرياء الاستنارة

فقلت ـــ كن مريض القلب أو سليمه ، ولكن هذا لا يمنعنى من التصريح لك . بانى انتهيت من تأدية رسالتى . لقد تعذبت بسببى لا انكر ذلك . .. ولكننى رددتك الى نفسك كما تروم .

فصرخ فى وجهى ـ أنت تحبيننى ـ

فضحكت ساخرة قائله ـ أنا أحبك أنت ـ وهل يمكن أن يحدث هذا ، ثم لؤمت الجد واعقبت ـ ابدا ـ محال ـ

فضحك طويلا دون انقطاع ثم وثبت كرامته، وها جمتنى رجولته وشاع من عينيه بريق غريب ، رد الى عواطفى المكبوتة . فبرزت ملتمعة وضاءة جذبتنى فى عنف الى مكان سحيق لا قرار له .

فانتصبت ثائرة متمتمة .. ويحى .. دعنى . . وداعا ...

فلم يتحرك من مكانه وظل يرقبنى ، وأنا اخطو فى تعثر حتى بلغت

المنتزه الصغير الذى اعد للراحة بالقرب من سطح الخزان. ثم ارتميت على العشب الأخضر - ابكى واضحك .. كالمجنون ... ابكى على القوة التى اباهى بها ولا وجود لها . واضحك من فرط الاسى . اليس مضحكا أن يتعلق قلبى برجل لا يليق بى - وكانت رنة ضحكى احر من البكاء وكنت انتظر أن يلحق الرجل بى ، يرجو ويتوسل ويبكى . ولكنه لم يفعل وظل فى مكانه يغالب عواطفه ليحترم رجولته - لشدما يعجبنى هذا... وان كنت أحب أيضا رجاء الرجل، وتوسله وحنينه وبكائه ليشعرنى برقة حساسيته .

المسافة طويلة لا يمكننى اجتيـــازها على قدمى وليست هناك وسائل للنقل . اضطررت أن اذهب اليه لأقل له - قم لتردنى الى مكانى فلم يتحرك ولم يتكلم وحملق فى -

قلت ـــ الا تحقق رجائى ؟؟..

قال ـــ لم ننته من الكلام بعد .

قلت ـــ لقد انتهينا .

وكنت خادعة لأن شوقى الى حديثه فى هذه اللحظة ، كان اشد من أى شوق مضى .

قال ـــ اجلسى لنتفاهم

قلت ـــ لا فائدة من هذا التفاهم.

فاردف — أنت مخطئة اذا حسبت ان تاريخ هذه الأيام سوف ينتهى بتمزيق الورقة من نتيجة الحساب ـ فتكلفت التلطف لأغريه على تنفيذ أمرى لكى يعيدنى الى مكانى .

وجلست بجواره على صورة محتشمة قائلة — هيه تكلم .

قال — وقد أدرك اننى أخاف الدنو منه — فى مقدورى ان أجعلك طوع أمرى ولكننى رجل .

قلت فى جد — ولولا ثقتى فى رجولتك لما سايرتك .

قال — ولكان فى مقدورى أن أغريك بأعذب الأمانى ـ

فقاطعته — لست من الغوانى ياسيدى .

فتابعنى — المهم ـ ستسافرين غدا إلى الأقصر .

فتعمدت أن اكذب علىّ ذلك يبرر موقفى فقلت ـ لقد عدلنا . وسوف نعود توا ، حيث جاءتنى رسالة من خطيبى يحتم على السفر باكر لعقد القران يوم الخميس المقبل .

وبدل أن يغضب أو يحزن أو يتكلفهما معا ـ ضحك فى طلاقة وقال ـ لن يتم هذا الزواج .

قلت متكلفة الجد — اتهذى ؟ .

قال — أنا واثق مما أقول وسوف ترين — روحك خلقت صنوا لروحى .

قلت — هب ذلك فما الفائدة وأنا مقيدة بغيرك .

قال — غدا تمزق بيديك هذا القيد وترميه تحت موطىء النعال .

فاغرقت فى الضحك متهكمة قائلة — من أدراك يا كاهنى — فعاد يقول — أفهم أن الزوج فى نظر المرأة كحلية منتقاة تتجمل وتزهو بها وقد تعثر وهى عذراء كل يوم على حلية تروقها وتتمناها — وهى واجدة الحلى على طول الطريق كما تعلمين . انما المهم هل توافق الحلية صاحبتها لونا وشكلا وقيمة حتى تظهر محاسنها ومفاتنها ؟ ! . . .

قلت نزلت بمستوى الرجل الرفيع إلى المادة الفانية

قال — احيانا تكون الحليـــة جوهرا لا تعادله أموال الوجود كله .

قلت — وأخيرا ؟ ؟

قال — الحلية التى أخذتها لنفسك . ان سلمنا جدلا بأنك اخترتها طوعا ، ستستغنى عنها .

فقاطعته — ابدا لقد تم التوافق ، (قلت ذلك وأنا اعرف أنه صادق وانى كاذبة ، ولكن موقفى يحتم على الكذب)

فقال — ياسناء . أنت تخاطبين انسانا لا حيوانا .

قلت — أعرف ذلك .

فاردف — لو كان هناك تفاهم أكيد بينك وبين خطيبك ،

لأحجمت عن التطلع إلى النسيم العابر .

قلت بحدة — أنا لا أسمح لك ، ان تهينى ، وهل ترانى خنته ؟

قال — ان مجرد التفاتك إلى أى رجل فى الحيـــاة — معناه خيانة للزوج أو الحبيب .

قلت إذا التفت بقلبى — أعا مجرد التطلع بالعين البريئة فلاجرم فيه فهز رأسه ، ومط شفتيه ، كأنه فى شك من قولى ثم قال — وفى تغريرك بالناس خيانة بلاريب .

فثارت كرامتى وعاودنى كبريائى فى ثورة فقلت — لم ألازمك إلا رحمة بك ، وشفقة عليك . ثم أنى لم أحاول التغرير بك ، ولست أنت الرجل الذى أسعى إليه .

فضحك حتى كاد يستلقى على ظهره ثم قال — سواء أهذا أم ذاك — فقد أحببتك وانتهيت .

قلت — وقد تعمدت أن أهينه لأنتقم منه — ومن أنت حتى تحبنى — ان حبك يقلل من قيمتى فعاود ضحكه وقال — اتراك سلعة .

فلكمنى الغيظ وقمت حانقة صاخبة قائلة بلهجة متوترة الألفاظ الذنب ذنبي — إذ احترم رجلا دونى .

فلم تهدأ ثائرة ضحـــكه المتتابع كأنه يريد أن يفرغ كل ما به من

عاطفة فى رنين ضحكه

تركته وذهبت أبحث عن زورق أو سيارة تقلنى إلى اسوان

أخيرا اتفقت مع نوبى أن يحملنى فى زورقه لقاء اجر رضى به ، وقد لمحت الأعرابى يعدو مسرعا ثم اختفى وراء جدار الخزان ولم أعد أراه . ثم سار بنا الزورق ، وقد ركب معنا جماعة من النوبيين ، ولكى أهرب من شجونى قلت لهم غنوا — فابتسموا فى وداعة يمتاز بها النوبى الملاح فى أسوان . وراحوا يهزجون بالحانهم البربرية الساذجة . وأنا أصفق معهم حسب إيقاع الأنغام ، وأغنى بغير كلام وكان وجودى معهم أوحى إليهم باعذب الألحان . فارتفعت أصواتهم وجاوبها الموج والنسيم فى شبه رنين حمل إلى أغنية الخلود . وقد نسيت الأعرابى ، بل ونسيت نفسى بما غمرت به من شعور حلو طروب بعث البهجة فى قلبى والدمع فى عينى .

وفى منتصف المسافة التى تصل بين الشلال وأسوان فى النهر ، لمحت قاربا يدفعه صاحبه فوق اللجة ليلحق بنا . ثم سمعت صوتا يخاطب ملاح زورقى بلهجة نوبية . فأجابه النوبى بكلمة واحدة نوبية أيضا ثم أوقف المجداف عن الحركة ، وكان القارب قد وصلنا ، فربطه بزورقنا بوسيطة حبل ، ثم دلف هو والأعرابى فى زورقنا .

لم ينقطع الغناء فى هذه البرهة ، لأن الطرب أسكرهم ، فانتشوا

بغير خمر . غضضت الطرف عن الأعرابي كأنني لا أعرفه ، فلم يهاجم صمتي وظل ساكتا حتى انتهى الغناء . وشملنا جميعا رهبة الجو الساحر . وبعد حين اتجه نحوى الأعرابي قائلا فى لطف وبلهجة الرجاء — أيعجبك هذا الطرب الساذج الصافى .

قلت — بالتأكيد لأنه نشيد القلب البريء . وياحبذا لو غنيتنا .

قال — شجنا أم شجوا .

قلت — هذا أو ذاك ، كلاهما له معناه السحرى . فقل ماتوحيه اليك هذه الطبيعة الساجية .

قال — كل ماحوالى يبعث الشجن فى نفسى .

قلت — ياعجبا - مع انه يهز أوتار النفس فتبعث شجوا طروبا

قال — أيمكن للبلبل الحبيس أن يترنم بغير الحان الشجن .

فضحكت متخابثة قائلة - اطلق نفسك - وحلق . كن مثلى طليقا ثم انتصبت فى خفة مداعبة هذا ، مخاطبة ذاك . مبتعدة عنه بدون أن يشعر . ثم ارتكزت على حافة الزورق ورحت أغنى .

أيها الفنان أقبل هاك دنيا وجمال
واستشف الستر من بين آيات الجمال
وتأمل فى الصخور الجاثيات على الرمال

تلثم الأمواج آنا ثم آنا لانبال

• • •

أيها الفنان أقبل هاك أرضا وسماء
وجبال ورمال وبهاء ورواء
ومياه ترتجينا للعناق بلا مراء
وفؤاد مستهام شفه طول العناء

• • •

وهنا أبت شاعريتى أن تتنفس ، فسكت على لوعة حارة .

قال — أتمى .

فتصامت .

فعاد يقول — للشعر بقيه .

قالت — فى نفسى .

قال — أظنها .

وهب الحب هناه ... لك ياسر الهناء

فتسببت وجومى وابتسمت قائلة — هيه ها أنت انطلقت . . .

إذن غننا . فقام من مجلسه وأخذ المجداف من الملاح وراح يجدف ويغنى . وما كاد يحمل الأثير صوته إلى قلبى حتى شاع الحب فى كل

جوانحى . وبدأت عاطفتى تهاجمنى فى عنف ، طلة من عينى فى شبه دموع فاطرقت برأسى لأخفى اضطرابى ناظرة إلى الموج أداعبه باطراف أناملى . كأننى أعزف على قيثار أوتاره من قطرات الماء . .

فى الموج الحانى بادية
فى الأفق انغامى رانية
البدر يزهو بغرامى
والكون يحلم بهيامى
النسائم لما رقت — داعبتنى
والطيور لما غنت — جاوبتنى
إلا أنت ياسناء
أنت لى كل الرجاء

ضمت بعاطفتى ذرعا ، وأحسست بالبرودة تتمشى فى جسمى ، كأنه صب ثلجا فوق رأسى . ثم شعرت بدوار فى رأسى اسلمنى إلى شبه إغماء حتى تنبهت بعد لحظة ، وقد تبدلت البرودة إلى سخونة غمرتنى واكسبتنى حرارة الحمى .

ولما بلغنا شاطىء أسوان ، لم أستطع حراكا ، إذ ثقلت أطرافى ، واعترتنى رعشة حادة انتفضت معها أوصالى . فوضع الأعرابى عباءته على جسمى ، وأمر نوبيا باحضار سيارة . ثم حملنى ووضعنى فى السيارة

بحنو ورفق ، وأمر السائق أن يذهب بنا إلى أشهر طبيب — فاعترضت قائلة — لا . . . . ان ما بى من نتيجة الجهد الذى كابدته وقليل من الراحة يكفى لأعادة العافية الى .

قال — لاضير على كل حال من استشارة الطبيب .

قلت — أنا أعرف بنفسى من الطبيب ، وتصنعت القوة قائلة . أنا أحسن الآن وأمرت السائق أن يذهب إلى نزل (سان جيمس) وحاول أن يخضعنى لمشيئته ، فازددت اصرارا حتى اضطر لمرضاتى ولما وصلنا الفندق ، ترجلت قبل أن يساعدنى على النزول . ولقد كنت فى أشد حالات الحمى ، ولكننى غالبتها لكى لايحملنى . فابتسم على مضض وقال بصوت خفيض — سأرسل اليك طبيبا ليطمئنى ، وتركنى دون أن ينتظر جوابا .

الفصل التاسع

الله اكبر ، الله اكبر ، الله أكبر . بدأ المؤذن يسبح الله وكل من في السماء والارض يسبح معه حتى النور في الكون يجاوب صداه ، في كل حي يسبح جهرا وخفية ويدعو الله في خشوع ورهبة أن يحقق آماله ، ويبعد عنه شيطانه ، ويكتبه في سجل المؤمنين المهتدين. لم ينفعني دواء الطبيب كما نفعني ايماني بالله . فكنت أحس عقب كل صلاة ان يدا خفية تمسح عن صدري آلام علتي ، وتبدد حرارة الحمى باعثة في نفسي أمنا وصحة . وكأن المرض خلق في نفسي قوة روحية عجيبة ، قهرت كل المطامع المادية ، واحتفظت بامانيّ الروحية ، فرحت اتطلع الى المثل العليا كأنني خلقت مبعوثه من قبل الله لأؤدي رسالة عالمية . رسالة الحب والرحمة والسلام .

لم اترك الفندق حسب تعليمات الطبيب الذي كان يعاودني كل يوم ، وقد فهمت من حديثه ان الأعرابي موصّى علي من جهة والدي ، وانه يدفع الأجر وثمن الدواء على حساب والدي . وقد خفت ان اكذبه فيفتضح امري ، لذا ارتضيت بالأمر الواقع مرغمة خوفا

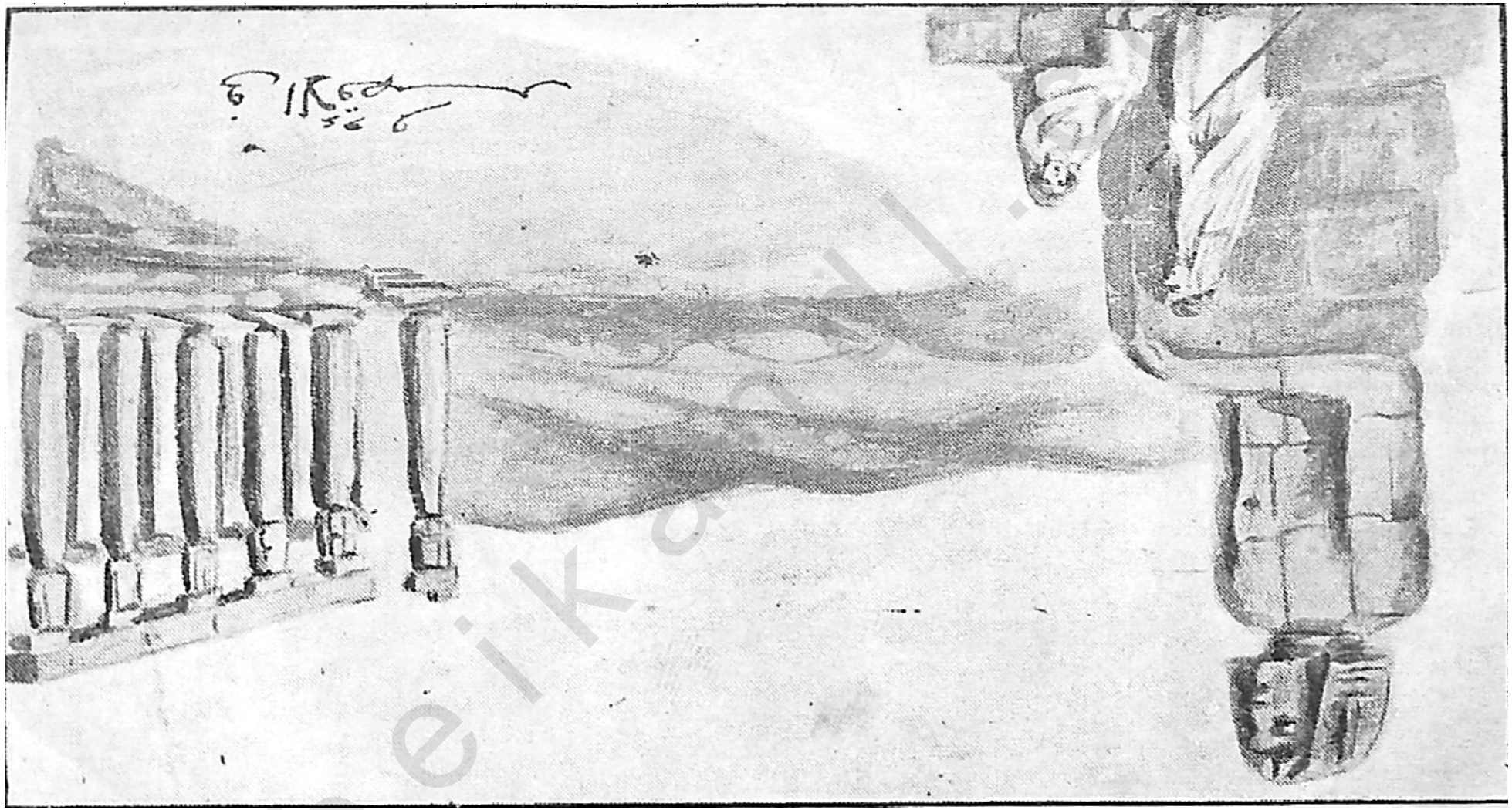

في جزيرة المنصورة

علىّ من رفيقاتى . بعد ثلاثة أيام من تاريخ مرضى

فى طريق الأقصر

عندما كان المؤذن ينشد لحن الفجر، ويشارك الملائكة فى تسبيحهم، كنا فى طريقنا الى الأقصر ، والمسافة لاتبعد كثيرا ولا تزيد عن ساعتين ونصف ساعة تقريبا . ولما هبطنا الأقصر لجأنا الى الفندق لنغير ملابسنا ونحجز أماكننا .

ولما كنت فى دور النقاهة اضطررت أن ألازم مضجعى فى هذا اليوم ، حيث شعرت بتعب . على أن رفيقاتى خرجن إلا صاحبتى لازمتنى رغم ممانعتى .

وثانى يوم شـــعرت بتحسن فى صحتى ، وقدرتى على الخروج فصحبت صاحبتى وخرجنا نتمشى على مهل . وسألنا مرشدا فى الطريق عن دار الآثار ، فقال أنها على مسافة بعيدة ، فركبنا سيارة لأن صحتى لاتساعدنى على المشى الطويل .

زرنا الكرنك وفيه يتجسم نبوغ العقل البشرى الصانع ، وقدرته على أن يخلق من الحجر فنا خالدا على مر الأجيال والدهور . وعرجنا على بعض الآثار وفجأة عاودنى الدوار ، فرجوت صاحبتى أن نعود توا قبل أن تداهمنى الحمى . فتأبطت ذراعى وحرصت على راحتى . وعندما تحركت لأركب السيارة لمحت الأعرابى واقفا عن بعد ينظر إلي من طرف خفى ، لكى لايشعرنا بوجوده - ولما سارت بنا السيارة رأيته يجلس على صخرة يحاول أن يتأملنى فرفعت يدى

إلى رأسى فى حذر أحييه وثالث يوم عاودتنى الحمى فلزمت الفراش وفجأة طرق بابى طبيب من الأقصر ليعاودنى وافهمنى ما أفهمنى اياه طبيب اسوان .

وكان هذا الطبيب لطيفا وديعا ، اعتنى بى عناية أثبتت لى اهتمامه بى أكثر من اللازم ، وتردد على فى اليوم ثلاث مرات ، وكثيرا ما غير الدواء كلما وجده لم يجد نفعا ، وبعد ايام زالت عنى الحمى . وأمرنى أن اعتكف بعض ايام أخر لأكون تحت رعايته ، فانزويت فى غرفتى مرغمة أفكر فى مرضى راجية من الله أن يردنى الى بلدى سالمة من أجل والدىّ . ثم يشرد ذهنى رغما عنى وراء الأعرابى ، فاشعر أنه اقترب من نفسى اكثر من ذى قبل . ولا يخرجنى من صومعة أحلامى الا صوت الطبيب وهو يسألنى كيف حالى وبعد أن تحسنت صحتى جاءنى الطبيب مبكرا وحدثنى عن نفسه طويلا ، حديثا صريحا لا تنميق فيه ولا رياء ، وكشف لى عما آسى فى حياته من مصائب ومحن ، مما جعل قلبه يشيب قبل أن يشيب شعر رأسه .

وكان من الطبعى ان أرفه عنه وأعزيه ، وعجيب ان يفتح لى الرجل صدره فى لحظات كأنى عاشرته منذ سنين . استغرقت هذه الزيارة اكثر من ثلاث ساعات ، عرفت فيها حياة الرجل وأمانيه ، وعرف فيها أنى فتاة حالمة أسعى الى المثل العليا . وانصرف أخيراً وهو يقول — يخيل إلى أننى ولدت اليوم من جديد وان الغيب بدأ

يتفتح عن أمل بهيج ، وهأنذا ألمح نجم حظى يلتمع . كل شيء فى هذا الطبيب جميل ومغرى ، قسماته وأخلاقه ، عدا شيء واحد . . إلحاده — انه مسلم بالوراثة ولكنه لا يؤمن بالله ايمانا مطلقا يظن أن الطبيعة هى القوة الخالقة . وما الله الا الطبيعة ، اقترب من نفسى بدماثة خلقه ، ولكنه لما أفصح عن آرائه الدينية ، نفرت منه وتلاشى عطفى عليه وأخيرا انمحى ما كنت اطمع ان يكون بيننا من تعارف اكيد واقام الخوف منه حاجزا منيعا بيننا لا يمكن اجتيازه

وعاودنى ظهرا وكانت حالتى قد زادت تحسنا ، فلما اطمأن على فاجأنى — الا تتزوجين؟؟

قلت — لا افكر فى الزواج الآن مطلقا .

كانت جرأة غريبة منه ، لو حدثت من رجل أحبه لرحبت بها ، وعلقت عليها أكبر الآمال ، ووضعت يدى فى يده لاحققها ولو صارحنى بها هو قبل أن أعرف إلحاده لاجبته جوابا يبعث الأمل الى نفسه . أما الآن فيخيل إلى أن دينه غير دينى — فمحال إذن ان نتفق مادام الفكر لم يؤلف بيننا

وعاد الطبيب يقول — ما رأيك فىّ

قلت وأنا أشد أطراف ملاءة السرير بأسنانى فى شبه اضطراب ، ليس أصعب على الفتاة من موقف كهذا . تتمنى الرجل وتراه كفؤا لها ، ولكنها ترفضه لعيب فيه لا يمكن اقتلاعه ، ثم قلت بصراحة — رجل ناضج ينقصك الايمان لتكون كاملا .

قال — إنك كالناس ، تفهمون جميعا الدين عن خطأ ، تفهمونه بالوراثة ولا تدركونه بالعقل .

قلت — وانت مخطىء اذا اعتمدت على العقل فى اثبات الله . أنه القلب ياسيدى . ان قدماء المصريين أثبتوا بفنونهم أن لهم عقولا كبيرة مفتنة قادرة . وقد كانوا لايؤمنون بالله ، فهل هدتهم عقولهم الجبارة النابهة على تعرف الله .وأنت اذا لم تحس بنور الله يضىء قلبك ، ويدفعك إلى الأيمان به والخضوع له مرغما . فانك بعيد عن اليقين بعد السماء عن الأرض !!

قال — هذه مسألة شخصية لاتتعلق بالحياة الزوجية .

قلت — وهل تطيب الحياة بغير الأيمان ؟ انك إذا كفرت بالله فأنت كافر بكل شىء ، تفهم كل شىء بعقلك مؤمن بتضليله ، وأنا مثلا أفهم كل شىء بقلبى مؤمنة بايمانه .

قال — وكيف إذن يتفق المسلم والمسيحية فيتزوجان ولكل منهما دينه وعقيدته .

قلت — هكذا يبدو للناس ، انما الواقع غير هذا .

ان رب المسلم هو رب المسيحى وان إختلف الاتجاه الفكرى الذى يرتفع بصاحبه إلى الله .والخالق الواحد الذى جمعهما هو الذى بعث النور فى قلبيهما من قبسه العالى ، فتحابا دون أن يفكرا فى

الدين. لقد ألف الحب بينهما فارتفع بانسانيتهما من قواعد الأرض المألوفة الى مراسيم السماء المحققة . وأصبح دينهما الحب والحب هو ادراك معنى من معانى الله. وعندما هم بالكلام دخلت صاحبتى تتبعها الرفيقات ،فأنتقل الى الحديث عن صحتى ثم حيانى وخرج.

* * *

يالغرابة الحياة ؟ ! . . .

تمنح وتمنع ! ! . . .

الأعرابى مؤمن ولا يلائمنى . . والطبيب ملحد ويلائمنى .

نمت نوما عميقا على أثر تناولى الدواء كأن به شبه مخدر . ولم أصح فى صباح اليوم التـــالى ، سألت عن الطبيب فوجدته لم يحضر ، وناولنى الخادم رسالة باسمى .

« سناء . . .

أحتمل كل شىء الا هذا . . .

مكث الطبيب فى عيادتك حوالى الثلاثة ساعات . . أكاد اختنق أمرته بعدم معاودتك بدعوى انك لست فى حاجة اليه . واذا جاءك فاعتذرى ولا تقابلينه وسأرسل اليك غيره . .

أنا أعرف كيف تقضى أوقاتك من بعيد

واقبلى أعطر تمنياتى

الهامى

ياعجبا أجالس بالمرصاد أمام نافذتى؟ أم تراه ساحر! لقد أطللت أكثر من مرة فلم أجده ولم أره . أتراه فى مكان لا أراه منه! لشد ما يدهشنى أمره. يتعقبنى مع أننى حريصة متكتمة لم أخبره بعزمى على السفر الى الأقصر . فكيف عرف ؟ تذكرت الطبيب فتألمت لهتك كرامته ، وانتويت أن أقابله اذا حضر ، وقد انتظرت ميعاد عيادته بصبر حتى حان فسمعت حركة غير عادية أمام باب غرفتى ، ودخلت الخادم تناولنى بطاقة باسم الطبيب الأول وأخرى باسم الطبيب الثانى .

ملكنى الفزع وانتابتنى الهواجس وفكرت طويلا - فما عساى أفعل . وأخيراً قلت للخادم أدخليهما معا ، وليكن مايكون .

قالا بصوت واحد — (قومسيون) يا آنسة ، ثم ابتسما .

فضحكت بغير صوت قائلة — لقد مللت المضجع ، ولقد جئت للرياضة. أريد أن تعاودنى صحتى ، كما كانت لانطلق كالطير فى الخلاء. فكشف كل منهما علىّ بمفرده ، واتفقا على ان حالتى غير خطره وأن ما بى من حمى قد زال عنى وانى فى دور النقاهة. واستأذن الطبيب الثانى ناظرا لرفيقه لكى يخرج معه ، ولكنه قال بالفرنسية أنه سيعطينى حقنه تحت الجلد فصدق الطبيب وخرج ، ولما خلا بى الأول احمر وجهه وقال بلهجة العاتب ، لم رفضت عيادتى — هل أسأت اليك ؟

قلت — معاذ الله ، بل أحسنت . وقبل ان أتمم حديثى دخلت الخادم مخاطبة الطبيب — رجل بالباب يريد أن يلقاك على عجل .

فأجابها بفتور — من قبل مريض ولا شك ، دعيه ينتظر .

فخرجت الخادم ثم عادت ثوا تقول له — الرجل ثائر ويلح .

فقال فى حنق — ليذهب الى غيرى — قولى له ذلك .

لكنها لم تخرج وتلكأت وأظنها تعمدت أن تظل فى الغرفة متعمدة ترتيب النضد ، مع أنها ليست فى حاجة الى الترتيب ـ وأعاد عليها الطبيب أمره ـ قولى له ينصرف أن كان عجلا

فقالت — ان الرجل ثائر ولا يرده الى صوابه إلا أنت ـ

فهز الطبيب رأسه كالمغيظ وتمتم . . لحظة . . وخرج يعدو . . مرت اللحظة وتبعتها لحظات ولم يعد ـ قلت للخادم بعد أن داخلنى الشك من هذا الرجل ؟

قالت — اعرابى يقول ان مريضة فى خطر .

كان ذلك يكفى لأن أفهم ما حدث ، ولكننى لم اشأ أن أجزم حتى أتبين الحقيقة . لم يعد الطبيب فى ميعاده ، وعاد الآخر فتناومت لأننى مللت تتابع الحوادث ـ فخرج بعد أن أخبر الخادم أنه سيعود فى صباح اليوم التالى . قضيت الليلة على أسوأ حال ، بما انتابنى من وساوس وأوهام ، وفى الصباح تعمدت أن أخرج قبل أن يعاودنى

الطبيب ـ فقد كان رجلا ثقيل الظل خلا حديثه من اللطف الذى يبعث الطمأنينه فى نفس مكالمه .

استقلت سيارة وحدى وذهبت لزيارة الهياكل . وهناك فى الأقصر مملكة لمعابد القـــدماء فيها الآلهة والملوك والملكات والحاشية . وكل ما يحتاج اليه سكان المملكة من لوازم الحياة ومطالب العيش وكمالياته

وبينا اتأمل تاريخ الانسانية القديم المسجل بحروف صخرية خالدة سمعت حركة الحاذر فتلفت واذا بالأعرابى . كانت مفاجأة لم أتهيأ لها ، وأظنه عرف ذلك عندما حاولت الكلام . فصعب على فلم يحاول أن يرهقنى ومد يده فى سكون ليصافحنى فبادلته التحية دون كلام . وتابعت خطاى فاستوقفنى قائلا ـــ سناء ـــ اجلسى هنا ـــ وقد أشار الى قاعدة تمثال رمسيس فهززت كتفى بمعنى ـــ لا .

فقال بلهجة الآمر كأن له على حقا مشروعا ـــ هذا آخر لقاء .

فقاطعته ـــ الحمد لله .

قال ـــ هنا أعنى ، لأنك ستسافرين غدا عائدة الى بلدك . على أننى سألقاك عما قريب .

فأدهشتنى لهجته الأكيده ، فتحديته قائلة ـ اتظننى فى بلدى حرة ـ لا سيدى . الى هنا ـــ وينتهى ما كان بيننا من تعارف .

فضحك طويلا ثم أعقب بضحكة جافة عميقة أكتسحت الأمن من نفسي وحل مكانه الخوف ، وتلفت حوالى أرى من منجدى لو أساء الى — فلم أجد الا نفسى : فارتميت على حافة التمثال مستسلمة للقدر معتمدة على الله

فقال — أنا أعرف ما يجول بذهنك . اسمعى أنت مغرورة .

فغضبت لاهانتى وقلت له فى ثورة ، كيف تجرؤ على اهانتى . فجلس أمامى متكئا على عصاه قائلا — ومخطئة أيضا ، إذا حسبتنى دونك . قد أكون فقيرا ، ولكننى لست حقيرا . وقد أكون متواضعا ولكننى لست ذلا ولا جبانا ولا ضعيفا ، وقد أكون جبارا ولكننى لست ظالما ولا قاسيا . وقد أكون أنانيا ولكننى لست بخيلا . وقد أكون متهاونا فى حقوقى ولكننى لست كافرا ولا ملحدا .

لقد جئت الآن لأرسم معك الحياة التى ترضيك فماذا تأمرين .. ولزم الصمت ليترقب كلامى . فسكت لأن قوة خفية أطلت من عينيه . فارهبتنى وأفزعتنى وردتنى إلى نفسى ، وقد بلغ بى الضنى منتهاه ، فتخاذلت وقهرتنى دموعى . أخيرا قلت بشفتين مرتعشتين تبللهما دموعى — لا تضيع وقتى سدى يا سيدى . . . لا فائدة ، فاستأنف حديثه قائلا — ماذا يخيفك ؟ ! . . . ستكونين أميرة . .

فاغتصبت ضحكة وتمتمت بلهجة بطيئة على النغم .

فنظر إلى فى جدو كبرياء حتى تخيلت عظمة الأمارة توجته لكن سرعان ما تلاشى ذاك الخيال على عجل عندما تأملت الجسم السقيم الجالس أمامى والملابس البسيطة التى لايرتديها غير فقراء البيد.

وعدت أضحك وأنا أقول — فلتفسحى يانفسى مكانا لذاك الحلم قال — لاتراوغى ، الحب فى عينيك يتكلم .

فأرخيت جفونى متمتمة — حبى - هه - ربما - إذا كان فمو خطيبى، ثم تلعثمت فاختفت الكلمات فى حلقى. وكشف الاضطراب عن سرى. وشئت ان انفى ما قلته

فأردف وقد تجسم الجد فى ألفاظه — ياسناء — أنا لا أغريك لأهو بك فلست أخا اغراء ، ولكننى أدعوك لتكونى زوجة خيِّرة محبة محبوبة .

كانت لهجته حارة تفيض بالصدق والحنان يلازمها الأمل والرجاء. ما أسخف الأحلام - لطالما تمنيت أن اتزوج بقلب غير آبهة بظواهر الجاه .

وهاهو القلب بين يدى فمالى أرده فى جفاء ؟ ؟ : .

ولطالما تمنيت الكوخ والقلب . . وهاهو القلب والكوخ ، فمالى ارتد عنهما الى مطامع الحياة . عظمت قيمتى فى ناظرى وأيقنت أن الوهم بلانى بما يشبه الأحلام . وشئت أن أكون أكثر صراحة عل الصراحة تحدد موقفنا فقلت — إذا كنت أنا مغرورة كما تقول ،

فأنت أيضا مغرور فيّ ؟ فلست أنا الفتاة النابهة القوية التي يمكنها أن تضحي بالأوضاع والتقاليد في سبيل زوج لا يمت لأسرتها بصلة القومية — مركزك وعملك يتطلبان فتاة بريئة حلوة ساذجة من بنات البيد ، تحملت لفح الشمس منذ الصغر ، والمعيشة في الأرض الجرداء المقفرة . أما أنا فلا يمكن أن أعيش في واديك الموحش !!

فهز رأسه قائلا — آه — فهمت مركزي كرجل فقير وعملي كجمال لا يتناسبان مع الآنسة المحترمة — هه — هذا ما يشغل خاطرك — أليس كذلك ؟ ! . . . وهل في العمل حقارة ياسناء ، كل عمل شريف في حد ذاته له قيمته في المجتمع وتأثيره في الانسانية . ثم تكلف ضحكة قصيرة ، واستطرد - على أنه في مقدوري أن أزاول أي عمل يروقك . أتاجر في أي بضاعة مثلا - وكأنه بذلك الأعتراف انتشلني من هوة سحيقة كدت أتردى فيها فقلت على الفور — وهل معك من المال ما يكفي ؟؟

قال — لا تخافي ، فان أمد لك يدا ، فأنني حريص على احترام رجولتي وكرامتي . فقوليها كلمة واحدة - ولن تندمي عليها فأنت الرابحة الحياة جميعها .

تنهدت في حرارة قائلة — ياسيدي .

فقاطعنى — لست بسيدك ، ولكننى صنوك ولا أقول عبدك كما يقول العامة . فانه ليس من المعقول أن أبيع حياتى لك لقاء قلب فى وسعى أن أمنكه عاجلا أو آجلا .

فزادت قيمته فى ناظرى بهذا الكبرياء المشفوع بالقوة اللطيفة وقلت — ليست المشكلة فى أن أقبل أم أرفض ، أو أحب أم لا . . . انما الأمر ليس فى يدى . فكر فى التقاليد التى يحترمها أهلى وقومى ولابد أن أوفق بين رغبتى ورغبة أهلى ، حتى لايتهمونى بالعقوق والفجور — وعليك أن تفهم اننى مخطوبة .

قال — دعينى أقوم بتحقيق الغاية وحدى . انما افيضى على من سناك قبسا يضىء لى ظلمة الطريق ، ثم سحب يدى برفق قائلا — سناء قولى اتحبيننى أم لا — واقسم لك ، اننى على الحالين صابر .

لم يعد فى امكانى مطلقا ان اكتم هواى ، غاب عقلى وتنبه قلبى ، فقلت بصوت تجمعت فيـــه أنغام عواطفى الثائرة الحية — أجل أحبك . . . ثم أطرقت استحياء وخيل إلى أن عاطفتى اذابتنى وحولتنى الى الدموع التى انهمرت من عينى فخجلت من ضعفى وقمت مسرعة لأخفى اضطرابى متوارية خلف إحدى الهياكل — أما هو فقد ظل فى مجلسه ساكنا لايتحرك كأن كلمتى اسكرته ، ثم دار برأسه يبحث عنى فلم يجدنى ، فانتصب واقفا ثم تمشى باحثا

عنى . ولما اقترب من المسلة وقف يتأملها مليا ثم استند عليها وراح يغنى .

يامـلاكى لست إلا شمسى العليـــا تنير
اهرق الأشجان ظلا لهـــوانا والسعير

* * *

وأرى الأموات تظهر من وراء الصخر تبسم
ترقب الأفلاك تسكر من شراب الحب تنعم

* * *

يافتـــاتى عانقينى عانقى القلب الولوع
من شرابك أسكرينى جففى نار الدموع

• • •

أنت تجرين بقلبى
مثـــل نور ويقين
قربى اليوم فؤادى
يتزود من معـــين

أيها الأموات قوموا واشهدوا عهد الخلود
هتفونى . . . هتفونى لاح نجمى للوجود

وما كاد ينتهى حتى ظهرت أمامه كالطيف الحالم قائلة بصوت هادىء متكسر كأنه آت من وراء القبور :

اخرجتنى أيها الشادى من قبرى .

قال — من أجل ذلك ناديتك، فتعالى . . .

وفتح ذراعيه وضمهما فى عنف كأنه يعانق جسما محسوسا .

قلت بلهجة صارمة كأننى ملكة جئت من وراء المعابد أيها الرجل. اتئد وإلا دفناك فى أعمق بؤره ، ونظرت اليه بمجد و كبرياء ، فلم يتحرك وظل فى مكانه مبتسما ، يضم ذراعيه على صدره كأنه يخشى أن يفتحهما ، فيفر منه انسانه . وانتهزت الفرصة وعدوت مسرعة ثم استقلت سيارة عائدة الى الفندق .

فى مضجعى هاجمنى ملاك الحب ، فصور لى التضحية فى رسوم وضاءة أنارت لى ظلمات الحياة ، وسهل أمامى كل عسير ، وأيقنت أن الحياة بدونه لا تطاق ، ولكن ما عساى أفعل . اتخلف عن رفيقاتى وأعيش فى كنفه وتحت حمايته . سيعقب ذلك ضجة هائلة بلا ريب وأكون فى عرف القانون والمجتمع مجرمة. هل أذهب الى أهلى- وأتركه يتقدم لهم ، سيكون الرفض حليفه . واذا قررت معه كأنى خرجت على دينهم .

لا القلب يقلع عن هواه - ولا العقل يرشدنى الى سلواه - ويلاه .

لا أنا ضعيفة فأستسلم وأخضع ، ولا أنا قوية فأتمرد وأنجح ثم اتجهت بفكرى نحو مشاكلنا الاجتماعية وماسينا الحيوية. فرأيت أنه من العبث أن أتمرد وأثور . إذ التمرد فى بلادنا جنون والثورة عقوق . والرجل الذى أضحى من أجله لا سلطان له يحمينى ، ولا جاه له يرد عنا ألسنة المتقولين . إذن لا مندوحة لى من رفضه ، وتجسم ذلك الخيال حتى أفزعنى وردنى الى كبريائى وتحصنى ، فتلاشى ذلك التيار الكهربائى الذى مسنى منذ لحظة . وحل محله اليقين الثابت والعقل الراسخ .

أعددت حوائجى فى صمت على أمل أن أنساه . ولما حان ميعاد الرحيل طاب لى أن أشترى بعض الهدايا الأثرية لصديقاتى . وفى منتصف الطريق استوقفنى قائلا — صونى نفسك لى حتى اجيئك واذكرينى . وتركنى وهرول مسرعا - يالله - كيف هان عليه أن يتركنى دون تحية . وهمس خيالى فى ذهنى بأسلوب الحكمة ، أنه يحرص على كرامتك فلم يشأ أن يستوقفك لكى لا يلفت اليك أنظار المارة . حكمة صحيحة معقولة واستساغ قلبى هذه الحكمة ، وبان فى ناظرى من جديد تحوطه هالة من النور جذبتنى اليه طائعة ، وصور لى القلب حبه الهائل المشبوب فى صورة ملتمعة سحرتنى وقيدتنى به . كان فى مقدوره أن يختطفنى ويقيدنى بالأغلال لأعيش عبدة

له ، وكان فى مقدوره أن يستغل وداعتى ولطفى ويغرينى على الحياة بقربه ـ لكنه يريد أن يأخذنى موفورة الكرامة محفوفة بالطهر والكبرياء . أليس معنى هذا أن الرجل نبيل . وأى شىء أحب إلى المرأة من نبل الرجل . . . حسب .

صح عزمى على تنفيذ أمر خامرنى فسرت فى الطريق الذى اجتازه باحثة عنه حتى وجدته جالسا تحت ظل شجرة باسقة . وانمحى من ذاكرتى كل ما كان يجول فيها منذ لحظات . اعتدل فى مجلسه ثم وقف وعلى وجهه معنى الرغبة إلى سماع حديثى . فلم اقو على النطق ولم أقدر على الكلام .

قال ـــ أظنك جئت لوداعى ، لم تكلفى نفسك هذه المشقة فطربت لهذا المخرج من مأزق وقلت ـ أليس من الواجب أن أودعك .

قال ـــ لا . . ولن . أقبل هذا الوداع ـ ومد يده مصافحا الى اللقاء .

ولو أنه جذبنى اليه فى هذه اللحظة ، لما ترددت مطلقا ولو قال لى ابق بجانبى لما خالفته . ولكنه لم يفعل هذا ولم يقل ذاك ، فصعب على أن أكون أنا البادئة ، وأن أهبط من ارتفاع كرامة الأنوثة إلى جرأة غير مشروعة . وان اسفك دم كبريائى فى سبيل حب لا اعلم نتيجته . وعندما تحركت لأنصرف استوقفنى قائلا ـ كنت أتمنى أن

استبقيك ولكننى اخشى : وكأنه انقذنى من نار شجونى . ودفع الجرأة كلها فى روحى

فقلت على الفور — مم تخشى ؟؟

قال — تظنين رغبتى اغلوطة آثمة .

فنظرت اليه فى حنان قائلة - ابدا . . . ابدا . . . انك ملاك ، وبدأت أسير على مهل فى تعثر . لكننى عدت اليه قائلة - سأمكث بجانبك الى الأبد - انتظرنى هنا .

صعق الرجل أطرق برأسه ليخفى اضطرابه كأن صراحتى ألهبت وجدانه بينما أسرعت الخطى لكى أبلغ الفندق بعد دقائق معدودات، متصورة الزمن يعدو بأقصى سرعته لكى لايترك لى وقتا لاقتناص فرصتى السعيدة .

أخذت حاجياتى وسلمتها لحمال ، وأمرته أن يتبعنى ، ووطدت العزم على التخلف والبقاء بجانبه راضية به زوجا حبيبا قانعة بكوخ وقلب ، وقبل أن أهبط الدرج اعترضتنى رفيقتى قائلة — لم تأت السيارة بعد .

قلت — أعرف ولكننى مضطرة للخروج لكى اشترى مانسيته من هدايا . واذا حضرت السيارة اسبقنى وسوف الحق بكن هناك .

وكنت اتكلم لاهثة بصوت متعب وانفاس متقطعة . ثم هبطت الدرج قفزا متخيلة أن يدا خفية ستقبض على لتحول بينى وبين تحقيق أمنيتى . وبعد أن قطعت مسافة لا يستهان بها فى الطريق .

هالنى أن الرجل ترك مكانه . يا لضيعة الحب . . . هل فر لما وجد نفسه أمام الأمر الواقع . تلاشت هذه الفكرة الخاطئة من فرط ثقتى فيه فتابعت خطاى ، ولمحته عن بعد واقفا بالقرب من سيارة . فأطمأننت وأيقنت أنه أعد العدة لفرارى . وقبل ان أصله سمعت صوتا ينادينى ، وتكرر النداء ، ثم سمعت حركة انسان يجرى . فظننت ان بعض رفيقاتى تبعننى فتوجست خفية ، والتفت خلفى فاذا بخادم الفندق ينادينى . ولما توقفت عن المسير سألته ما الخبر ؟

فناولنى تلغرافا وهو يقول .. جاء توا . لقد لحقت بك على عجل لكى أبلغك ولقد اجهدنى الجرى المتواصل .

زاغ بصرى واضطرب قلبى وارتعشت يدى ، وياهول الخيال عندما يسمع كلمة تلغراف حتى ولو كنا نعرف أنه تهنئـــه لامحالة نضطرب . وقد يؤدى الاضطراب إلى مالا تحمد عقباه .

« احضرى على عجل والدك فى خطر »

أخوك

وكان ذلك يكفى لأن يردنى الى صوابى . صرخة واحدة خرجت منى - أبى - خرج معها كل مافى قلبى من حب وأمل ورجاء . نكصت على عقبى وعدت من حيث اتيت . وأنا أغمغم بصوت مخنوق محزون . . .

ابى . . . ابى . . .

الفصل العاشر

بعد العودة

لم مت فراشي عقب عودتي مباشرة غير عليمة بما في — أهي حمى الجسم أو حمى القلب. لم يحدث لوالدي أي خطر، ولكن الوالدة اشتاقتني فطلبتني على هذه الصورة. ومع إحساسي العميق بأن الأعرابي ملأ خواطري وشعوري يسامرني خياله في وحدتي وخلوتي ويلازمني في غفوتي وصحوي. لكنني حمدت الله الذي خلصني منه وأهاب بي عقلي من جديد إلى التأسي والتناسي. واستنكرت تصرفي الخاطئ الذي كاد يدفعني إلى الجحيم. ويقينا أن حياة الإنسان كلها نتيجة فكرة في ساعة جنون، ولما حدثت والدتي بشأن الأعرابي دون أن أشعرها بالحقيقة الرهيبة، ومن غير أن أتهم نفسي بحبه. ريعت وخالجها الشك قائلة — حذار يا ابنتي أن يكون قد عرف اسمك، وبلدك، ومقرك. انهم يقولون أن العرب تتمسك بالحب كما يتمسك المؤمن بعقيدته، وفي سبيل الحب يضحون بحياتهم، وأخوف ما أخافه أن يسعى الرجل إليك، ويختطفك بتأثير مخدر الحب الجنوني.

قلت — انى أعفيه من الجنون ياأماه . . فإن نفسه أطهر من ماء الوضوء . فهزت رأسها مرتابة فى قولى وغمغمت — على كل حال سيكون زفافك قريبا . ثم تركتنى وذهبت لشأنها سيكون زفافى قريبا ... سهم مسموم صوب إلى صدرى ، فاضطربت ارتجف من هول الخيال . ثم دخل أخى ينبهنى إلى مقدم الخطيب فاعتذرت بأننى متعبة وشبه مريضة . فزجرنى وصمم على لقياه ، وبعد دقائق لقيته ، فتلقانى طلق المحيا فاتحا ذراعيه فى لهفة يكاد يلتهمنى بنظراته النهمى ، ولما انتهينا من التسليمات والتعليقات قال — حدثنى عن رحلتك .

قلت بصوت خفيض عليه مسحة التعب — أخى يحدثك .

فقاطعنى أخى قائلا — ولكنه يريد أن يسمع منك .

تابعه الخطيب مبتسما فى خبث — إذا كنت متعبة اليوم ، فلنرجئه إلى الغد .

قلت — ان تكرار الحديث يضجرنى .

فقاطعنى أخى — أنت قديرة على إعادته باسلوب آخر كأنه جديد .

فاغتظت منه وقلت بحنق — لاتضايقنى ، يكفى أنك أسأت إلى

وحملتنى على المجىء مرهقة الأعصاب مكدودة ، فاقدة الوعى ولولا عناية ربى لفقدتمونى .

فمال على أخى يقبلنى وهو يقول — أفى لهفة الحب ضرر ؟ لقد اشتقناك . وأدار الخطيب وجهه وقد تورد ناظرا إلى خلسة مخاطبا أخى ، أنسيت وجودى . فضحك أخى طويلا وهو يربت على خدى فى لطف ، لا بأس من وجودك ، ثم تركنا وخرج .

وشملنا السكون برهة حتى التفت الى وقال بصوت مرتعش — سناء . فنظرت اليه صامتة ، فسكت وقلت فى جد — ماذا تريد ياسيدى ؟ ؟

قال — سيدك — متى كنت سيدك ؟ . أنا عبدك .

فصدمنى هذا الخضوع وحز فى نفسى وكأنه أقام حاجزا من الاحتقار بينى وبينه ، وأطل الأعرابى من وراء سجف خيالى بكبريائه واعتداده برجولته فازدريت الخطيب ونسيت وجوده ، وتلهيت بالقراءة فى مجلة وجدتها ملقاة بجانبى . فقال — سناء ، ماهذا الجفاء .... قال ذلك بلهجة حارة عميقة مؤثرة ، ودموعه تتساقط كالكلمات المعبرة عن حب عميق محتجز يصحبه ألم دفين .

فتألمت له ورقت عواطفى ووثب قلبى رويدا ، وتحفز لملاقاته .

قلت بلطف — سيدى كلمة اعتزاز أنادى بها الرجل .

قال فى هدوء — عذر أهون منه صمتك ، وهل أنا فى مستوى الرجال عندك . فابتسمت فى بشر قائلة — أيعجبك . . عزيزى .

فابتسم على مضض قائلا - ولا هذا ؟ . . .

قلت — فى الحق أنا لاأستسيغ مطلقا تكرار النداءات المعتادة كحبيبي وملاكى وروحى الى آخر — تلكم الاستعارات التى يمنحها الرياء سخيا ، لطالما نادت المرأة الرجل بأحب الأسماء التى تحمل خلاصة الحب العلوى ثم يتمخض الواقع ، فاذا به لايساوى نعل حذاء فى ناظريها . وقل ذلك فى الرجل أيضا . . هل جف معين المعانى الجميلة حتى نلجأ إلى تخدير الأعصاب بالألفاظ المعسولة ، فملكه الغضب على ماأظن ولكنه حجب ثورته بمهارة — قائلا — ولم لاتقولينها أنت طاهرة كطهارتك وأقولها أنا صادقا كصدقى . أنت مستنيرة وأنا مستنير فلماذا لايكون حبنا أيضا مستنيرا .

فقاطعته — الحب هو الحب ، ملك قلب أمير أوخفير ، ولانظن للاستنارة سلطانا عليه . إنما قل بقدر تفاهمنا نتناجى ، وليخلع التفاهم على حديثنا رداء البهجة أو رداء الحداد . فتجهم متألما قائلا — أعوذ بالله ، لقد شوهت قصيدك فى نهايته .

قلت — لاضير من الصراحة مطلقا .

فقال — أنى أكره التشاؤم .

قلت ـــ وأنا أحبه كالتفاؤل تماما، أدين للأول بفلسفة الحرص والسخريه كما أدين للثانى بفلسفة القوة والتضحية .

قال ـــ لقد عدت من رحلتك كغريبة عنى

قلت ـــ اتشعر بذلك ؟

قال : اكذب ظنى ؟

قلت ـــ حسنا بدأت أفهم ، فشعورك بأننى غريبة عنك، يؤكد لى انك لم تحبنى ، لأن التفاهم هو الحب عندى . فاعتدل فى جلسته وراح يهز ساقيه فى شبه حركة عصبية ، وحملق فى طويلا ثم وقف واقترب منى رابتا على كتفى فى لطف قائلا بلهجة متواضعة ـــ هل هذه تحية لقاء خطيبين أو على الأصح حبيبين .

فقاطعته ـــ خطيبين لاحبيبين .

فصعق ولزم الجد وقال ـــ وما الفارق بينهما ـــ ألا تعترفين بحبنا . .

قلت الحب يولد فى قلبينا قبل أن تسجله الشريعة فى كتاب الحياة والخطبة اتفاق مشروع قابل للخسارة أوالربح . ثم أكسبت لهجتى قوة لم يعهدها فى وأردفت ـــ الحب يبقى رغم أنف القدر .

فقال ـــ لقـــد جئت من رحلتك بغير قلبك ، بدأت أشك فضحكت متخابثه قائلة ـــ بل بدأت تفهم .

فذعر وانتشح وجهه بنقاب حزين قائلا ـــ مامعنى هذا ؟

قلت — ما فهمته .

قال — لا تتعنتى . . انى الآن ثائر .

قلت — خير وراء الفكر الحائر . .

فزاد غيظه واندفع نحوى مهددا بيده . سأعرف كيف أرد لك عقلك فعاودت الضحك قائلة — تحسن لو رددت لى قلبى

قال — لا . . انه ملكى استفظ به بين جانحتى .

فابتسمت متهكمة وأعقبت ، ياضيعة الأمل وهنا دخل أبى ، فتراجع للوراء وحياه فى أدب . ثم أخذ مجلسه بجانبه ، وراحا يتحدثان فى السياسة ، هذا متشائم يرى العالم مقبل على خطر داهم . وذاك متفائل يلمس الواقع من طرف عينيه ، والحقيقة ضالة بين هذا وذاك .

انسحبت متثاقلة وهرعت الى غرفتى أحمل من الهم ما الله به عليم وابلائى من نفسى لا أريد هذا ولا أريد ذاك ، ولا ادفع هذا غية فى ذاك ، وغم شعورى الأكيد بحب الأعرابى لا أريده ، ورغم إيمانى بحب الخطيب لى لا أريده . لكن ما ذنب الخطيب ، وقد ارتضيت به معتقدة ان وراء الرضا حبا سيتمخض عن يقين اكيد .

كبر ألمى عليه حتى رق قلبى له ، وبدأت الوم نفسى على مافرط منى راجية ان اوفق الى مرضاته عما قريب . وابتعد الأعرابى عن ذهنى ولمحت حاجزا من الضباب بينه وبينى .

ياعجبا ! ! . . أتتغير العواطف كالأجواء تماما

لم اكن كاذبة فى حبى له مطلقا، فما معنى هذا التهيب الذى يحجبه عنى ؟ اهو شعور الخوف من الخيبة ؟ ام شعور الرهبة من الحب ؟ . وعجيب أيضا ان اشعر بعواطفى تجتاز سياج ارادتى محلقة ، حتى تلتف حول ذلك الخطيب لتشعرنى انه حبيب ، اترى احبه هو الآخر . . بين نارين . . انا . . هل امنح الأول وادفع الثانى ام استبدل هذا بذاك . لم أجد مناصا من الترويح عن نفسى تاركة قلبى فى حمى الغيب .

اسندت رأسى على حافة النافذة ، اتأمل الطبيعة الساجية ، وقد انسرحت روحى فى عالمها الزاهر حتى لمحت طائرا ، يرف ويحلق كالطائر . فذكرنى بالطائر والأعرابى :

طائر غنى للالف حنا
يبعث الشجنا فى دجى الليل

• • •

ارسل الالحانا واسكب الاشجانا
واذرع الافنانا فى دجى الليل

• • •

الهم الحـــائر وانصر العاثر
وارث للسـاهر فى دجى الليل

كنت أغنى والدموع تغمرنى و ولست ادرى هل كنت أناجى الغريب أم الخطيب ، ثم أصبحت أفر من نفسى الى الحديقة ، اناجى الزهر ، واناغى الطير ، واتأمل الحيرة تسرى فى شرايين النبات فتحبوه بالحيوية الوسنانة وأنا فى حاجة ماسة إلى من يحيونى بالحنان.

وفى يوم صافى الأديم ، دخل على الخطيب وانا مضطجعة فوق العشب فى حديقة منزلنا . مسترسلة فى أحلامى . فهرع الى مبتسما مقبلا يدى ، ولقد عودنى منذ خطبنى ان يقبل يدى . ولكن ما لهذه القبلة مليئة بالحرارة كأنها تدفقت من منهل فيه نار ولهب . ومالها خف الى اليوم كالطائر الرفيف . . هو الذى يحرص على التأنى فى مشيته والرزانة فى حركاته . اتراه هو الآخر يتضافر مع القدر على . مرت هذه الخواطر فى ذهنى كالبرق الخاطف على اننى استطعت ان استعيد ثباتى لأرحب به فى غير كلفة ولا جمود .

ولما استقر بجانبى قال — مررت البارحة من هنا ، فسمعت شدوك . فلم اشأ ان ادخل فاعكر صفوك تمشيت حول السور ، حتى انتهيت من نشيدك — كم كان رائعا ، فكأن داوود يرتل مزاميره . فاطرقت برأسى محاولة ان أرد عنى كل خيال لأكون له وحده ثم قلت — انك تبالغ يا كامل . وكانت هذه أول مرة فى حياتى اناديه فيها باسمه المجرد ، فانتعش وشاع البشر فى كل ملامحه وقال — أعيدى

اسمى وكرريه . لم يعد اسمى الذى اعرفه . . انه نغم . . اكان يحمل اسمى فى خفاياه هذه الموسيقى السحرية وانا لا ادرى . وكأنه سحر حقا ، فبان أمام ناظرى متشحا بغلالة شفيقة من النور . ولم اشأ ان اخرج به من محراب هذه السعادة ، وحرصت على ان ادعه فيها طويلا ريثما يقضى الله امرا كان مفعولا ـ فقلت ـ الطبيعة تفيض سنى وبهاء .

قال بنغمة الحالم ـــ لأنك متربعة على عرشها العالى . ثم نظر الى فى لهفة جامحة واستطرد ـ لقد احترت بين الطبيعة ووحيك ـ فهل اسلبت عليها جمال فنك ؟

قلت ـــ اتشبهنى بأم العجائب ـ ليتنى مثلها ـ إذن لما ترددت ان اكون كما اريد فى كل لحظة . فسحب يدى فى رفق وضغط عليها فى لطف وهو يقول . وهل يمكن ان تكونى افتن منك الآن .

قلت ـــ كنت اؤدى رسالة الحب العالمى ، بما يشمله من بر وعطف وحنـــان وأمن وسلام ، دون ان يحول بينى وبين ما اريد حائل .

قال ـــ انت قادرة على تحقيق ذلك .

قلت ـــ اوه ليتنى . . الآمال شىء . . وتحقيقها شىء آخر . . فمن مقدورى ان احلم والواقع غير الحلم .

قال ـــ انعمى بالأحلام كما شئت ، فالواقع لامرد له .

قلت ـــ هذه ارجوزة الأستسلام ، وأنا أميل الى التمرد .

قال ـــ وأنا احذرك لأن التمرد طابع الجنون .

قلت ـــ لقد صدق الرجل الذى قال لى مرة ان الجنون أول مراحل الأيمان فحملق فى قائلا ـ أى رجل هذا الفيلسوف؟

قلت ـــ اعرابى . . عرفته فى رحلتى .

قال ـــ فى نفور ـ لاشك انه مجنون .

فبهت لهذا الرد الفاتر وثرت . . انه مؤمن ، ولقد حببنى فى الأيمان اكثر من ذى قبل ، فلم يأبه وهز رأسه ناظرا إلى فى شراهة . وكأن بلاهة خرجت من مكمنها تواً ، فبدلت وداعتى إلى جحود ، ونبهتنى إلى شىء لطالما بحثت عنه فى نفسه . لم يشعرنى مرة بأنه يغار على وكان ذلك يحيط عاطفته بغمام يحول بينه وبينى . وهاهو الآن يمر بعاطفتى الملتهبة التى تمخض عنها منطقى حينما ذكرت الاعرابى باردا كالثلج . وكأنه بهذا البرود نبه فى ميت احساسى . فتحولت شعلة من ضرام ـ انما لأدع روحى تعانق روح الغريب . وتمعنت فى اختباره فقلت ـ لقد احبنى الرجل كل الحب . فظل محتفظا بثباته قائلا ـ وماذا يهم مادمت لى وحدى .

قلت — الا تخشى ان يتحول قلبه إليه بتأثير إيمانه وحبه القوى النزيه .

قال — بصوت بطىء خال من حرارة الغيرة - لا أخاف عليك إلا من نفسك .

قلت — نفس كنفس كل بشرى جبل من صلصال مهين ، لفحتها الحياة بغزائرها ، فأنا أحب وامقت . أعف واشتهى ، أريد واستحى . أضعف واجبن .

قال — هذا صحيح ، ولكن الطبيعة حقنتك بمصل الحذر .

وهنا لفت نظرى نحلة رفت على الزهرة ، وبعد أن امتصت رحيقها انتقلت إلى أخرى بحنقها ونشاطها ورغبتها .فغمغمت كأنى أناجى نفسى ليس الرجل هو الذى يرجو ويشتهى ، وليست المرأة هى التى تغرى وتستسلم انما هى الطبيعة ، عندما تتقمص الذكر أو الأنثى على أى صورة كان . كل جسم حى ، الطبيعة تستقر فيه عابثة وتخرج منه لاهية . تلهيت بمداعبة الزهر لاستغرق فى خواطرى . يا للفارق الهائل بين حرارة الغريب وبرودة الخطيب لكأن الحياة بحيويتها استقرت فى قلب الأول والموت ببرودته كمن فى قلب الثانى . هبط من السماء التى رمقته اليها بخيالى الأرض التى تجذبنى اليها بحنان وشتان بين خياله وخيالى ، انه يرى الدنيا كلها فى سجن

سجانه عقله وأنا اراها فى التيه اللامحدود الذى يضيئه قلبى . استأذنته لأنصرف بدعوى اننى أشعر بدوار وفى حاجة إلى الراحة ثم تركته وسرت متعثرة وما كدت أصل غرفتى حتى آويت إلى مضجعى مستسلمة لهواجس القلب المحزون الحائر .

بعد أيام أصبحت سجينة حب الغريب وقد صار شاغلى وملازمى باعثا فى ألم اليأس ومرارة الحب ، وسهدا لا يطمئن معه إنهم لا تنقع غلته ـ فسروا شحوبى بالمرض ، وجاءوا بالطبيب يكشف عن دائى يالله ـ ما ابسطنا . ماذا يعرف الطبيب . بل ماذا يعرف الطب كله عن ذلك المرض المجهول ، ذلك السر الذى نحاول تفسيره بما أوتينا من ذكاء وفراسه فيزداد غموضا وتعقيدا .

فلا هو مجسم فنحدده ولا هو ملموس فندركه ولا هو فكرة فتصورها .

إنما هو إحساس عميق فيه مرارة وحلاوة يحمل فى ثناياه خلاصة اليأس والرجاء . . له تأثيره على على النفوس الضعيفة وعلى القوية ويأخذ طريقه فى سبيل غايته بغير هوادة فى لين وعنف

ابتسمت فى مرارة أشد من مرارة القنوط عند ما قال الطبيب : بم تشعر الآنسة ؟ ؟ : .

إنه يسألنى ! ! ! . . ياعجبا

قلت : هنا (مشيرة إلى موضع قلبى)

قال بعد أن وضع (مسمعته) على صدرى : ضعف فى القلب فتماكرت قائله : وهنا (مشيرة إلى الجهة اليمنى) فضغط بأصابعه ثم قال : الكبد

فريعت أمى وغمغمت . . القلب والكبد . . خذ كل ما أملك « يادكتور » لقاء عافية ابنتى

فابتسم الطبيب على مضض وقال : سأكتب لها على الدواء اللازم - وإن شاء الله تتعافى قريبا ثم ألقى أوامره الطبية وانصرف فى هدوء وهو واثق بالتأكيد أنه أدى مهمته على أكمل وجه ممكن وأنه صور المرض وظلت أمى فى موقفها تجفف مدامعها فى صمت وترقبنى فى حزن كأن شبح الموت يرف على

لم تفارق البسمة شفتى بل استطعت أن اضحك طويلا وأقول : أنا مريضة بالقلب والكبد . .

فارتمت أمى فى حنان على صدرى تقبلنى فى حرارة مبللة وجهى بدموعها فى حنان كاد يذيبنى

على اننى استطعت بعد جهد أن اؤكد لها بأن الطبيب لم يصب وأننى بخير وكل ما عندى شبه ضعف سوف يزول قريبا . وقد صدقت لأننى تكلفت البشر فاندفع الدم فى وجهى

ولكننى لم استطع أن أرتدى لباس المقاومة فتخاذلت وعاودنى الدوار فى شبه غيبوبة أعادت إلى أمى قلقها وخوفها فاستدعت طبيبا آخر قام بعمله كما قام الأول وخرج مطمئنا إلى ما قدم من نصح .

واضطررت أن أذعن للأوامر مرضاة للوالدة فاستسلمت للعلاج ودائى لادواء له إلا قرب الحبيب

آه - ليتهم يعلمون أن الدواء بين أيديهم فلو تلاشى الظلام الذى يحجب بين تفكيرهم وتفكيرى وبين رغائبهم ورغائبى . .

لو استطعت ان أبدد هذا الظلام . لكشفت لهم عن الواقع فى النور غير هيابة .

ولو تحررت عقائدهم من نير العبودية وزال عنى الخوف والاستسلام لأمكننى مصارحتهم بما فى نفسى لأوفر عليهم تكاليف الداء الموهوم ويزول عنى الضنى الذى يبدو فى شحوب وجهى وهزال بدنى

وبكلمة واحدة أقولها فى غير اللعثم تخرج من قلبى طاهرة متطهرة من كل إثم مبين .

— أحب —

كلمة واحدة ولكنها تحمل معها دائى ودوائى آه لو لم أخف اتهامهم إياى بالطيش والمجون لقلتها لأستريح ، ولكنهم يقيمون بحالتهم حاجزا منيعا بين عقلى وعقولهم وقلبى وقلوبهم .

الآن فقط يتفتح عقلى على آفاق جديدة وأرى كل شيء يتمخض عن فلسفة أمام ناظرى فلم أعد تلك الانسانه التى تنظر للسطحيات نظرة عابرة .

بل أصبحت أتغلغل فى أعماق كل مرئى لأخرج منه سراً . ولا شك أن كل شيء فى الوجود يحمل سراً .

حتى حديث صاحباتى اللاتى جئن ليعدننى لم أعد أمر به عابثة أو لاهية بل أتشبث بكل لفظ واتعلق بكل كلمة باحثة دارسة عن باعثها ونتيجتها .

وفى هذه اللحظة كنت أحس أننى قادرة على أن أدرك اكثر من ذى قبل . لكن ادراكى - يتطلب الصمت لأفهم .

وصديقاتى يتحدثن فى ثرثرة تخلط بين الجد والدعابة وبين العلم والجهالة وبين الشك والايمان !

إنما لا يحلو الحديث من فلسفة لمن يتفهمها

تقول إحداهن : أحب الشتاء لأننى أميل للنوم مبكرة

وتقول أخرى : لقـــد شقيت سعاد فى زواجها لأنها فضلت الزوج العجوز الثرى .

وتقول ثالثة : منذ شاهدت «فلم» البارحة وأنا ثائرة الأعصاب،

مناظر الاستسلام والتمرد ثم الأمن والحرب يتقاتلان فى سبيل المادة . .

وتعقب الرابعة : لقد أجهدنى البحث اليوم عن لون قماش يناسب غرفة نومى الحديثة لتروق فى ناظرى زوجى .

هذا حوار صديقاتى نفشات كأوراق الزهر المنثور قد يبدو ذاك الحديث سخيفا ولكنه طابع التفكير الخاص بالمرأة - كل كلمة تحمل معها خلاصة حياة المرأة . .

ولم يكن لدى ما أقوله فى ذاك الوقت ، وما عساى أقول ! ! . .

وهل يمكن أن يدركن ماوراء حديثى لو كنت تكلمت - انهن يتحدثن عن الجو والمسرح والزى والتجميل فى كل لحظة ويملأن فراغ أذهانهن بهذا الحديث كأن حياتهن خلت من مهام الحياة وشئون البيت ومطالب الانسانية وهن لايستطعن أن يفكرن بعقلى لأنه فى عرفهن شاذ ولابد لى أن أساير هن وأجاملهن واتحدث بحديثهن لأشعرهن بوجودى على الأقل مضطرة - رغم ماأعانى من ألم وضيق - لكيلا يتهمونى بالصلف والكبرياء والجنون . .

وهكذا نضحى براحتنا ولذتنا فى سبيل الغير طمعا فى الرضى والتقدير حتى الذين يعرفون حقائق الحياة يخادعون أيضاً كأن الخداع هو الأصل فى الانسان

لم أتمكن من مسايرتهن لضيق نفسى وتجهم ذهنى فاضطررت أن أخدر أعصابهن بالغنـــاء لأروح عن آساى وأخفى عنهن خواطرى وشجونى .

آه لو كن يفهمن ما أقول . .

لألقيت عليهن محاضرة صريحة فى تربيـة الجيل الجديد وكيف يعود الطفل منذ الصغر على الصراحة والجرأة والاقدام وتربية قلبه بجانب عقله لينشأ صاحب قلب كبير يحمل رسالة الحب الانسانى .

كانت تراودنى هذه الخواطر عندما قالت إحدى صاحباتى : . غننا ياسناء . .

فلم أتردد لأنى كنت فى حاجة ماسه إلى الترفيه عن نفسى وتناولت القيثار اداعب اوتاره لينبه شجونى

وأعقبت أخرى : — بدأت عيناك تغنى

قلت : إذن حسبك ! . .

فارتفعت الأصوات . . اسمعينا لحن الحبيب الغائب وكأن ذلك نبّه مشاعرى فبدأت .

حبيب القلب إن غيبت عنى فشخصك ماثل بين الضلوع

وإن ابدلت ودى بالتجنى فحسبى ذكرك ماضئ البديع

وطيفك ماثل فى كل مرآى ونورك حوله جم السطوع
يا أليفى تعـــال إنى ابيت الليل فى سهد مروع
فلا ليل يرق ولا سمير وحبك واجب هـذا طبيعى

أشجاتى هواى فأبكانى
وملكنى الشجن فأنسانى وجودى

وانهمرت دموع صاحباتى كأننى وقعت على اوتار قلوبهن فخرج شجنهن دمعا يعبر عن الحنين

وانصرفن توا كأن كل واحدة شاءت أن تحمل معها حنانى لتأنس به اذا اختلت إلى نفسها .

الفصل الحادى عشر

لما خلوت بنفسى دخلت على الخادم تعلن مقدم رجل غريب يطلب مقابلة والدى وتبعتها الوالدة قائلة : سناء . . . ضيف جاء لوالدك فرحبى به ريثما يحضر

قلت — ولكننى متعبة ، فلتخبره الخادم بأن والدى ليس هنا ليحضر له بعد ساعة .

قالت — أخبرته فقال أنه جاء من سفر لأمر هام وطلب أن نبعث اليه رسولا يتعجله .

فأطرقت مفكرة إذ انتابنى اضطراب وخوف لم استطع تفسير باعثهما .

ومن غير وعى نظرت من النافذة ولشدما كانت دهشتى حينما رأيت الأعرابى .

لا أذكر ماذا قلت للوالدة ولا أدرى كيف ارتديت ملابسى ، صعقت لفرط المباغته فارتديت القميص وظللت عارية لأتخير الجلباب وكأن كل الملابس غير لائقة فى نظرى فاتركها لأمشط شعرى ويصعب على تصفيفه إذ يختل نظامه كأنه هو الآخر مضطرب فأعود إلى تسريحه ولم اكد انتهه منه حتى تتهدل ملابسى . .

كم من الوقت مر على — لا أدرى ! ! . .

دخلت عليه وأنا بين الشك واليقين ، إذ لم يكن فى حسبانى مطلقا أن يجرؤ ويجىء لمقابلة والدى

وصرخت بغير صوت مشدوهة — إلهامى . . فوقف فى هدوء باسما محتفظا بثباته — ولم أره أبدا جميلا ذا هيبة ووقار كما رأيته فى هذه اللحظة .

كان وجهه محاطا بهالة من النور فيها وقار ظاهر واطمئنان أكيد قال - وهو يمد يده لمصافحتى بصوت بطىء - سناء .

قلت بصوت مرتعش كأن حرارة روحى تمتزج بالألفاظ فتجعلها كتموج الأثير فى السحر — لم جئت ؟ . .

وكم كان رائعا حينما نظر فى هدوء إلى كأنه يعلن رغبته فى إيمان حتى أننى حولت نظرى من وجهه من شدة الخجل لأنظر إلى هيكله فاذا به تغير تغيرا كليا حتى فى زيه . . . استبدل بالزى القديم ملابس نظيفة غير رخيصة كأنه من سراة العرب ، ولعله لاحظ دهشتى فأدرك ماخامرنى قائلا . . . عل هذا الزى يروقك ؟ . . .

فخجلت ولم اشأ أن استطرد فى مثل هذا الحديث ورغبت فى مواجهة الواقع قبل مجىء أبى فقلت على الفور : قل لى لم جئت ؟

فاعتدل فى جلسته وقال برصانه : لأتزوجك .

فلكنى الوجوم وتصلبت مفاصلى وقد احسست بالحرارة فى وجهى باعثة فيه حمرة الخجل والأمل وتعقبها برودة تحمل صفرة اليأس والألم وانا بين الحالتين ذاهلة مغمورة بالشجن .

وتمتمت أخيراً بعد جهـــد فى سبيل مغالبة اضطرابى : قائلة بصوت محموم ـ انك تخاطر .

قال ـــ لاخطر فيما هو مقدور .

فتلعثمت ثم استجمعت قواى قائلة :

لقد زوجونى وانتهى الأمر ، ولم أقل ذلك تخلصا منه لأننى كنت ابتغيه وأتمناه ولكننى كنت على يقين من أن والدى سيرده فابتسم على مضض وقال بلهجة الواثق من فوزه قائلا :ـــ

هكذا على عجل ؟؟ . . لا أظن !! . .

قلت بلهجة التأكيد المغتصب : انتهى الأمر .

فلم يتحرك وقال بصرت الجاد . . . جئت لأقابل ولى أمرك وله الأمر .

قلت ـــ إلهامى ـــ احتفظ بماء وجهك .

قال بلهجة المتهكم : شكرا ، أعرف كيف أصونه .

قلت بحدة ـــ لا فائدة ، لا فائدة . .

فقال بصوت بطىء رزين : لقد سبقت كلمة الله

فتململت وتأففت وبعد أن صمت قليلا قلت : آه لو استطعت أن تقدر خطورة تصرفك فلم يعبأ وهز رأسه ساخرا فى صمت . . .

وهنا دخل والدى .

فاصفر وجهى على ما أظن لأنى أحسست بالرعشة الباردة تتمشى فى شرايينى وانسحبت فى هدوء وأنا أنظر فى وجوههما بالتعاقب ولم استطع صبرا ريثما يخرج الضيف فوقفت خلف الباب استرق السمع فسمعته يبادر والدى فى جرأة وشجاعة لا أعرف أنسانا يحملهما معاً فى نفسه : طبعا حضرتك لا تعرفنى ؟

فنظر والدى اليه باسما (كما رايته من ثقب الباب) ثم قال : يسرنى أن اتشرف الآن بمعرفتك .

أنا إطامى عبد العزيز من بلاد اليمن .

فرحب به الوالد فى لطف لم أعهده فيه وصافحه قائلا : أهلا وسهلا بسيد الأعراب :

فقال الأعرابى : المفروض أن أسهب وأطيل ولكن حسبك أن تعرف أننى رجل لايحمل فى برديه أى رذيلة ، جئت أطلب يد ابنتك فابتسم الوالد قائلا . ابنتى أنا ؟

قال الأعرابى — أجل ابنتك : سناء

فدهش الوالد قائلا : وتعرف اسمها ايضا ! . أمر غريب !!

أجابه — وأى غرابة فى ذلك ؟.. لقد رأيت ابنتك عندما كانت فى الصعيد فأعجبنى احتشامها وادبها ولقد استطعت ان اعرف من احدى رفيقاتها انها من هنا ، فصح عزمى على الاقتران بها إذا ثبت إلى انها من اسرة كريمة فلما جئت علمت ماطمأننى حيث أنها على خير مايتمنى الرجل لزوجه بفضل عنايتك ورعايتك

وهنا أطرق الوالد برأسه مفكرا ولعله كان يفكر فيما يقول :

فاستطرد الأعرابى - يبدو لك الأمر غريب كغرابتى فى ناظريك .. أليس كذلك ؟ . .

فقاطعه الوالد لهجة المجاملة — أبدا معاذ الله .

فعاد الأعرابى يقول — هذا رجل غريب مجهول لاتعرف عنه اكثر من اسمه يطلب يد ابنتك — انما الأمر بسيط — أنت مسلم مؤمن وأنا مسلم مؤمن فاجعل الايمان الحلقه التى تربط بيننا واعتمد على الله .

كانت لهجته كافية لبعث الأمن والطمأنينة فى الوالد لكنه قال : لشد ما كان يزهينى أن أزف اليك ابنتى ولكنك جئت متأخرا . . ياولدى . . حيث أن ابنتى مخطوبة .

قال الاعرابى — أعرف ذلك .

فضحك الوالد طويلا ثم قال - وهل تتزوج المرأة برجلين ؟؟

فأجابه — تخطب لرجلين أو اكثر والأصلح تتزوجه

فلزم الوالد الجد وقال : لقـــد انتهى كل شيء ياولدى آسف جد الأسف .

فقال الأعرابى بصوت متهدج — سأترك لك فرصة للتفكير ثم انتصب واقفا فى كبرياء وصافحه فى هدوء وعلى ثغره بسمة الاحترام . .

هنا فررت لأختفى من طريقه ورحت أرقبه من وراء نافذتى فلمحته يسير صوب شاطىء النيل مرفوع الرأس فى اتزان ظاهر كأنه لم يخذل وقبل أن يختفى عن نظرى تسلط على شيطانى يوسوس فى صدرى بما لم يدر بخلدى منذ لحظات ثم وجدتنى فى الطريق بعد أن همست للخادم سرا أن تخبرهم إذا سألوا عنى بأننى خرجت قبل خروج الزائر لزيارة صديقة مريضة - لكى لا يرتابوا فى -

ولما تنبهت إلى نفسى فكرت فى الغاية التى أسعى اليها ومن أجلها خرجت، فلم أدرك كنهها تماما .

إنما أحسست بأن حب الاعرابى طغى على وملأ فراغ قلبى كله — إذن — فأنا خرجت من أجله ولكى ألقاه ، وما كدت أتمسك بأذيال هذا الأمل حتى تمرد ضميرى فى عنف ووقف حائلا

بين حبي وكرامتي وبين رغبتي وسمعتي . وبدا لي تمردي جرما لانهاية لفظاعته، فنكصت على عقبي خجلة من نفسي ، وتراجعت متخاذلة القوى شاردة اللب حائرة بين أمل أرجوه وشرف أرعاه وبدن ان أعود إلى المنزل هرعت إلى جزيرة من جزائر النيل تختال برملها وسط الماء الصافي كأنه يشملها بحنانه الرزين والموج الهادىء ينعكس عليه ظلال السماء الملونة بأضواء اللوعة والرجاء ولما دلفت اليها شغلتني خواطر الاعرابي في حرارة اشعلت وجداني فاقام الحب ستارا حجب عن قلبي عنف ضميري وراق لي الشجو فبدأت اهزج بصوت الطائر الحبيس.

الألم يؤنس وحدتي ... من ذا يبدد وحشتي
ولّى اليف مسرتي ... وهواه بين حشاشتي
قد كان رمزا للوفاء ... قد كان نبعا للصفاء
واليوم ينشدني الهناء ... عبثا ارد له الرجاء

* * *

كم من امان هانئات ... بالجهل راحت غابرات
كم من خواطر ماثلات ... بالخوف امست ضائعات

• • •

فى دنا الأحـــلام
قد ملـكنا الأنام
فى حمى الأيام
قد حفظنا الغرام

* * *

احبته دون الأنام وهو الحبيب على الدوام
ياحسرتى عفت المنـام ياويح قلبى من السقام

ما كدت انتهى من ترجيع شجنى حتى سمعت همسا موسيقيا يمتزج بأثير المساء فيكسبه روعة وسحرا ثم لمحت طيفا يدنو منى رويدا رويدا ـ فخفت ان يكون جريئا وقحا استتر بالظلام واستعان بوحشة المكان إذ كان الليل اسدل ستائره السوداء الشفيفة على الكون ليخفى فى عالمه جرائم الآدميين وما آسى الوجود ومسرات الضمائر وهتافات الأرواح .

وعندما عدوت هاربه قفز الرجل فى سرعة ليواجهنى فلما وقع نظرى عليه انتفضت واضطربت وتلاشى كل خاطر فى ذهنى عدا فكرة الوفاء لذلك الأعرابى الحبيب إنما الرهبة أخرستنا فصعب علينا الكلام وطال بنا الصمت .

هو فى مكانه يتأملنى فى صمت
وأنا فى مكانى مطرقة فى وجوم

كلانا شارد اللب مسحور . .

يحمل النسيم أنفاسه إلى فيجاوبه شعرى المتطاير فى شبه ثورة

ساعة رهيبة ، تلك التى تترادف فيها الأفكار ويعجز دونها اللسان وبقدر حرارة العواطف يضعف البيان .

وأخيرا قال . . وأنت . . أترفضين ؟ ؟ . .

وتدفع حبى الى الكلام رغما عنى وكأنه جذبنى فى عنف من حصن تحفظى إلى سماء الحب الطليق .

فقلت على الفور — كيف أرد روحى .

قال بلهجة التهكم — والدك على حق لأننى فقير لا أملك غير قوت يومى فماذا ترين ؟ ؟ . .

قلت — الأمر لك فماذا ترى ؟ ؟ . .

وكانت لهجتى تعبر عن صدق عزمى فى تنفيذ كل مايأمر به مهما تطلب منى التنفيذ من جهد وتضحية ، إذ عظم الحب حتى بان فى ناظرى أعظم من الوجود فلزم الصمت مليا ثم قال :— سناء الحب والمال لايتفقان فاذهبى على جناحى الثروة التى تنتظرك إلى النعيم الذى

يتمناه لك أملك فقاطعته بصوت حزين متكسر وكنت أحس بألفاظه تتحول إلى حرارة تلهب قلبي : إلهامي ـ لست من طلاب النعيم المادى حسبي الحب مغنما .

وهنا ملكتني قوة الحب ووثبة الهوى فاقتربت منه فى حنان وأنا أقبض على يده فى عنف لأبثه كل حرارتى ووجداني قائلة: لأمت إن لم اكن لك ! ! .

فلم يتكلم وحول وجهه بعيدا عنى ليخفى اضطرام عواطفه ثم عاد وأطرق مفكرا وأخيراً قال : كل شيء تحتمله المرأة باستناء عدا الفقر

فقاطعته بلهجة اليقين — كل شيء تستغنى عنه المرأة غير الحب ، انها خلقت منه وله .

وترامى الى شبه أصوات خافتـــة فتلفت كالظبى المذعور وانقطعت عن الكلام .

فاغتصب ضحكة وقال — عودى الآن الى دارك آمنة ولتكن مشيئة الله .

قلت وأنا أبتعد عنه خوفا ملتفتة يمنة ويسرة ذعرا .

وماذا أنت فاعل ؟ ؟

قال — لم أفكر بعد ـ ثم صافحنى كأنه يقول اذهبى . . فصافحته وقد انحبس دمعى من فرط الشجن وذابت الكلمات فى فمى فلم أقل شيئا وصرت صـــامتة شاعرة بأننى ذرة ضائعة فى العالم اللامحدود .

الفصل الثانى عشر

عندما آويت إلى مضجعى تركتنى روحى وحلقت هناك حيث هو جينا تقمص عقلى ضميرى واسمعنى بصوت الناصح آية المجد الذى يشيد على دعائم الثراء والجاه ثم تجسم ذاك الصوت حتى صار أشبه بيد ناريه ترسم بحروف ملتهبه أشباح المخاوف والأهوال والبؤس والشقاء الذى يجره الفقر فى ذيله حتى أننى لم استطع كبح جماح عواطفى فصرخت من هول المشهد ولم أعد أرى ضوء آمالى الحسان وكأن كل أحلامى اختفت وراء العدم .

تمنيت لو أموت قبل أن أعيش على هذه الصورة البريعة وبدأت أفكر فى طريقة للخلاص من هذه الحياة النكداء وقبل أن استسلم لليأس القاتل تمثل قلبى فى صورة ملاك رف على من السماء باسما بسمة أعادت الطمأنينة والبشر والقناعة والأمن والرضا إلى نفسى فأنعشتنى ونهتنى إلى مفاتن الحياة واسمعتنى أناشيد الفرح العالى وأحسست بأن شعور الطمأنينة مع الرضا الوديع هو الذى يبعث النور فى الوجود فاكسبه روعة الخلود .

وعانقنى الملاك وقبلنى قبلة لم يعرفها تاريخ المحبين ، ولعله استودع قلبى نور السماوات وطهر الستى لأننى شعرت أننى بدلت من حالتى العادية إلى حالة ماعرفها خيالى الخصيب . .

ولما تأكدت من أننى تنبهت اليه وتعلقت به أغمض جفونى بأصابعه السحرية وحلق بعد أن همس فى أذنى . . استودعك ذكريات الحب لترفه عنك ما آسى الحياة .

عانقنى الحب ومضى ، ليته ظل بجانبى فى رضى .

صورتان متناقضتان يسيران جنبا إلى جنب كأنهما أليفان حبيبان . . ياعجبا . . الحب والفقر .

كلمتان يحملان أسرار الكون بافراحه وأتراحه .

أزاح ذاك الخيال الستر الكثيف عن عينى ، فلمحت الأعرابى يطل على من وراء الأفق ، يضحك ويبكى .

ولكن لضحكته رنين مشوم عجيب

ولدمعته حرارة نقية طاهرة .

وفتح باب الغيب فظهر لى ما وراءه . . ولكننى لم استطع تمييز كل شىء . .

وأظنه لاحظ على الغباء فقال : هذه دنا الفقر تأمليها جيدا فعجبت كيف يكون فيها ذاك الضوء الباهر وسألته : أيحمل الفقر ذاك الشعاع الأخاذ ؟

قال — انه نور الحب يأبى أن يتخذ مكانه إلا فى دنيا القناعة

قلت — لكأنك تقول أن لامكان للحب إلا فى القلب الخلى الذى لا تشغله مطامع الحياة

قال — أجل . . جردى النفس من نزعات الشر والطيش والكذب والغش . . وأتركيها فى الطبيعة . . تطمئن إلى الحياة . .

فارتبت فيما زعم وتصورتنى فقيرة معدمة لا أملك ما أقتات به . فبكيت . . وما كادت مدامعى تنهمر حتى أحسست بيد ناعمة تمر على صدرى فى حنان ورفق بدلت وحشتى إلى أنس أسلمنى لحلو الأمانى . .

فصرخت . . الآن فهمت . . إذ احس بالحب ينساب فى سحر كالنور فى روحى وبدأت احلم وأنا ماجعة فى استسلام .

• • •

قلت لوالدى عندما رأيته طلق المحيا صافى المزاج : — أبى — أريد أن اتحدث معك قليلا .

فنظر إلى عينى كأنه يستوضحهما الخبر قبل أن أتحدث اليه ثم ابتسم وقال : ليس أحب إلى من حـــديثك ثم قادنى إلى غرفة مكتبه وأجلسنى فى حنان بجواره قائلا . هيه — تكلمى ..

ولا أنكر أنى كنت مزمعة على أن أظهر أمامه بمظهر المرأة الناضجة القوية . ولكن الطبيعة خذلتنى فعادت بى إلى الطفولة الساذجة الضعيفه ، وبعد جهد استطعت أن أتمالك نفسى قائلة : لقد وعدتنى أن ترفض الخطيب إذا لم تتفق ميوله مع ميولى فتجهم وجهه واربد وحدق فى قائلا : طبعا إذا كنت على حق .

قلت — أنت تعرف أننى أحكم عقلى دائما .

قال — أحيانا يضل العقل تحت تأثير خاص .

قلت — أبى — ثم غلبنى الخجل فبكيت .

فقاطعنى . . أفصحى : هل حدث منه ما آلمك .

قلت بصوت تخنقه العبرات : لا أريد أن أتزوجه مطلقا . . مطلقا

فضحك طويلا ثم ربت على خـــدى فى عطف وهو يقول وما السبب ؟

قلت — لا أحبه ولا يمكننى أن أحبه .

قال — يا ابنتى لم تدركك السن التى تؤهلك الى تحكيم عقلك

وقلبك معا . . فاعتمدى على فى توطيد حياتك على دعائم السعادة والهناء وليس فى خطيبك ما يعيبه مطلقا . .

وهنا نسيت رهبتى وقلت بلهجة متزنة : يا أبى لست طفلة - أننى أفهم حياتى جيدا وفى مقدورى أن أشيد مستقبلى على أساس تفكيرى وعاطفتى .

فقاطعنى محاولا ان يلطف من حدته : ماذا يقول الناس عنك إذا علموا بانفصام خطبتك إنهم لا يصدقون بأنك انت التى تخليت عنه بل يظنون أنه هو الذى تركك لنقص فيك - وأنا - لا يمكننى احتمال الأقاويل الباطله التى يتخذها كل جاهل سبيلا إلى الزور والبهتان

فقاطعته : ان الناس لا تسعدنا إذا شـــقينا فلماذا لا نكون أحرارا فى حياتنا حسب ما يرسمه لنا الدين الحنيف والشريعة العادلة ،

فقاطعنى : وهل تظنين المستقبل يقدم لك رجلا أفضل منه ، أبدا . . أبدا . . ولكى أثبت لك صحة ما أقول اذكر لك أنه منذ يومين جاءنى رجلا أعرابيا يطلب يدك — ولو رأيتـــه لعرفت قيمة خطيبك.

فكظمت غيظى واخفيت عواطفى قائلة : وما الفارق بينهما .

قال بحدة - فى كل شىء — فرق عظيم جدا .

قلت — ألأن هذا مصرى وذاك أعرابى ؟

قال ـ هذا لا يضير إنما هذا ثرى وذاك فقير ،أعنى المضرى يكفل السعادة التى تليق بفتاة مثلك .

فابتسمت على مضض قائلة ، وهل تظن السعادة فى الثراء .

قال ـ بالتأكيد .

قلت ـ ألا يحتمل ان يخفى ذاك الثرى وراء بزديه كل مفاسد الوجود والآخر يحمل فى نفسه خلاصة فضائل الدنيا ! ! ! .

قال ـ أنا اعرف الرجال .

قلت ـ لم يخلق الله انسيا يعرف ماوراء النفوس . . إن هذا علم ربى ـ وصمت مليا ـ ثم نظرت اليه مردفة : أبى ، ماذا تقول إذا قلت لك انى لا أعرف السعادة إلا فى اطمئنان النفس وبهجة القلب ويقظة الروح ، وهذه الخواص لا ترتبط مطلقا بالمادة كما تظن . . انا على عكسك تماما أرى الحياة أقل تعاسة وشقاء كلما ابتعد الناس عن سلطة المادة التى تجذب النفوس ببريقها وهى فى الواقع كالسراب

فهز رأسه علامة الشك ثم وضع يده على كتفى وهو يقول : انك لا تعرفين مكان الرغبة فيك ـ انا اعرفها ـ انها لاتنشد غير المادة ولا تحيا إلا بالمادة .

فتنهدت بحرارة وتمتمت . . رباه لم خلقتنى أخالف ابى ، كان يجب ان اكون مثله انظر للحياة بمنظار المادة او هو مثلى ينظر

للحياة بعين الروح — ثم انقطعت عن الحديث لأن الخادم دخلت تعلن للوالد مقدم سكرتيره الخاص . . فانتصب مسرعا وتركني وهو يقول : اعتمدى على الله وعلى

ساءنى مجىء السكرتير فى هذه اللحظة إذ كان فى نيتى أن أتوسل اليه باكية راكعة ـ لأن أبى قلما يستقر فى الدار حيث أن ظروفه تحول دائما بينه وبين الاجتماع بنا إلا نادرا وقد لا يكون إلا فى المواسم والأعياد إذ يقضى طوال نهاره وشطرا من ليله فى محل تجارته مضحيا براحته فى سبيل زيادة ربحه وهو يحرص على سعادتنا البيتية دون أن يشعرنا بحنانه القلبي عن كثب لاعتقاده أن تحقيق رغباتنا المادية هى كل مطمع لنا فى الحياة . .

ولست أدرى لم خلقت أنا على هذه الصورة فإن أخوتى كأنهم لا يشغلهم فى الحياة غير المأكل والملبس وما يتفق مع أمزجتهم من مطالب وحاجات . .

وأنا لا يهمنى أكلت أحسن الأغذية أو ارتديت أحسن اللباس أو ذهبت إلى السينما لمشاهدة فلم جديد أو للنزهة فى حديقة عامة للتسلية .

كل ما يشغلنى القراءة فى كتاب أو تسجيل خواطرى بأسلوبى الساذج وما يجول بنفسى الغامضة أو العزف على القيثار أو التفكير

فى ظواهر الحياة لتعرف أسرارها أو مساعدة من يعوزه المساعدة من الجيران والمعارف والأقارب بما أملك من دراهم معدودات أو بما أوتيت من قوة — كأننى لم أكن إلا ابنة أمى فهى التى تماثلنى تماما . . فى الحنو ورقة الاحساس وعمق التفكير ، ومن أجل ذلك أتمنى ان تكون كل أم على جانب عظيم من الذكاء والفطنة ، كبيرة القلب ، عظيمة النفس ، تحمل فى صدرها خلاصة المثل العليا . . لأنها المعين الذى يغذى بنيها وبناتها فى رفق وقوة .

أجل ، الأم هى الطابع الأكيد الذى يرتسم على جبين المملكة التى ترعاها . .

• • •

لطفت أمى بحنانها ثورتى النفسية عنـــدما دخلت على ورأتنى مطرقة ، ولما سألتنى ماذا بك ؟ ؟ . . ارتميت على صدرها لأستمد من قلبها مايعوزنى من صبر واحتمال ، نظرت اليها بعينى الدامعتين وفتحت فمى لأصور لها ما أعانى وقبل أن اتكلم سمعنا صوت الوالد كالرعد المجلجل فاهتزت له اركان البيت .

وهرعت اليه الوالدة وأنا اتبعها .

وما كدنا نقترب منه حتى رأيناه على صورة مفزعة كأن صاعقه مفاجئة أو كارثة كبرى تنزلت عليه .

واقترب أخى الكبير من أمى وقد كان واقفا مشدوها مصعوقا وهمس فى أذنها بعض كلمات عندما سألته بصوت خفيض، ما الخبر ؟.

فصرخت هى الأخرى : وامصيبتاه

لم استطع مخاطبة والدى الذى أطرق صامتا كالمذهول وكذلك أمى التى أعقبت الصراخ بالبكاء .

على أننى تمكنت فى حذر أن أقترب من السكرتير الذى وقف بعيدا وسألته ماذا حدث ؟ . .

فأجابنى — السفينة التى تحمل بضاعتنا حطمتها رياح أمس العاصفة . . لم أدعه يتمم حديثه وهرعت إلى والدى أعانقه وأقبله . . وفى الواقع كانت الصدمة أشد من أن تقاوم لأن والدى استدان فى سبيل هذه البضاعة ظنا منه لأن ثمنها سيرتفع بعد شهور .

• • •

ساءت حالتنا المالية إلى أقصى حد وتبدلت معيشتنا من اليسر إلى العسر وقنعنا بطعام واحد بدل عدة أطعمة واستغنينا عن الكماليات واكتفينا بالضروريات ولم نعد نظهر فى المجتمعات .

ولو لم تكن أمى مقتصدة فى حكمة لكانت حياتنا لا تطاق

باع والدى كل ما يملك لسداد ديونه ثم باع أخيرا المنزل الذى ألفى نقطن فيه أيضا . . وراح يبتعد عن الناس كأن الفقر جرم

لانهاية لشظاعته وفقد صبره وتحول من الرصانة إلى حالة عصبية مريعة .

وعلمني هذا الحادث أن الانسان يموت أكثر من مرة في حياته وما العدم إلا انتهاء مرحلة الموت المتقطع .

أليست هذه الحالة صورة مصغرة للموت ألم يمت والدي في نظر أقاربه وعارفيه .. ألم تمت عائلتنا في نظر العائلات الراقية والمنحطة على السواء .

وها هي الكارثة تسحب في ذيلها الخطيب الذي اعتذر بأنه سيسافر إلى الخارج وسيظل هناك طويلا لاستئناف دراسته العالية على أنني لم أحزن مطلقا لأنني كنت أوقن من قبل انه طلب يدي طمعا في ثروة أبي

ياعجبا . . . يبتسم لي الدهر وأنا على حافة القبر . . . يذهب الخطيب بعد ان تضيع فرصة لقاء الحبيب وها أنذا اخجل من لقياه - حتى في الطريق - لما انتابني من سوء الحال

أنا التي كنت أبدل ملابسي في اليوم ثلاث مرات أو يزيد وقد يمر العام ولا ارتدي فيه الرداء غير مرة واحدة من كثرة مالدي . .

أصبحت لا أغادر البيت منزوية في غرفة متواضعة لا احاول ان اتطلع إلى شيء بعد ان بعنا كل اثاث البيت لنفقات بثمنه وكلما تمزق الرداء رقعته إذ ليس في مقدوري ان اشتري غيره ، وكذلك أمي واخوتي . .

أما والدى فقد تلاشى ما كان باقيا فى جسمه من قوة واعتكف الناس ولازمه المرض القـــاتل فاستسلم له وراح ينتظر منيته فى صبر القانط المترقب ساعة الموت فى صمت واحتمال .

لم يبق لدينا سبيل إلى الذود عن حياتنا إلا أن تعمل أمى أى عمل وأشاطرها أنا الجهاد على أى صورة . .

انما أى عمل تعمله أمى !! . .

هذه هى المشكلة . .

أيمكن أن تنحط الى مصاف العاملات وقد كانت بالأمس القريب ملكة السيدات المحصنات .

انها يتيمة لاعم لها ولاخال ولاأى قريب تعتمد عليه كأن الحياة أخرجتها من باطن الأرض وحيدة غريبة - وأبى - حتى فى هذه الأيام السوداء - يحتفظ بكبريائه . . لايذوق الطعام إلا لماما ويتظاهر أمام النـــاس بأنه يأكل أحسن ما يشتهيه إنسان ويأبى أن يمد يده لأخيه أو عمه .

يريد أن يموت على هذه الصورة موفور الكرامة . . ويقعد به الكبرياء عن العمل فى المصالح والمصانع لأنه يأبى ان يكون خاضعا لامرىء كان فى الامس يحترمه ويخشاه ... وكان من الطبيعى ان يتجهم وجه الحياة ولم نعد نتلمس الرحمة فى أى إنسان .

كان الثرى يحترم أبى والفقير يقدسه فأصبح الوجيه يتحاشاه والفقير يتجاهله .

ضل الصديق العظيم طريق دارنا وقد كان يهرع اليه فى كل مناسبة وغير مناسبة يتباهى بزيارتنا ويفاخر .

ولم يعد الفقير يتهافت على بابنا متمنيا لنا كل خير لقاء المنح حيث راحت أسباب الرفاهية والمجاملة ساحبة فى ذيلها صداقة الوجيه ومجاملة الكريم وثقة العظيم .

وزال السخاء لأن المعين نضب فتلاشى معه تمنيات الفقراء وخنوعهم وأصبح الجار الفقير كالسيد بعد أن كان عبدا .

* * *

الفصل الثالث عشر

مرت الشهور تباعا وحالتنا تزداد ضنكا وضيقا حتى غمرنا العوز والحاجة ولم يعد هناك ما نتوسم فيه الخير فنرجو

فلا عمّ يواسينا كأنه يجهل ما ألم بنا ولا الحياة تبث فى أوصال أخى الكبير قوة تعينه على مغالبة الفقر بل مرض حتى صعب عليه أن يكون أول فرقته ليستأنف دراسته مجانا والحكومة فلما تنصف فى هذه الأحوال وإن انصفت فبعد عناء كبير ونحن اعجز من القيام بأى مسعى وأنا لا احمل شهادة تؤهلنى للعمل فى أى مصلحة ولا أجيد فنا استغله لسد مطالبنا الضرورية على الأقل . .

فى مثل هذه الأحوال يعرف الانسان قيمة التعليم والفن فلو علمونى لاستطعت أن أدفع عنهم ذلك الفقر المدقع ولأمكننى أن أعول اخوتى فأخرجهم من ظلام اليأس إلى نور الأمل والحياة

أشعر أننى أعرف بفطرتى كثيرا من العلوم والفنون بمواهبى التى تشعرنى دائما بأن الله يلهمنى ولكن هل تقيم الحكومة وزنا للذكاء . . وهل يفضل العامل النابه الذى اكتسب باطلاعه علما وفنا فأصبح عبقريا ، عمن يحمل شهادة أجازتها له المناهج الحكومية ! !.

ماعرفت انسانا عبقريا نال حظه فى الوظائف الحكومية . . .

الحظ الجميل لحامل الورقة ذات الأرقام والتوقيعات — آه — لو كان هناك قانون يمنح النابه العامل حقه الذى يكفل له حياة تلائم نبوغه — لو كان — لاستطعت أن اؤدى عملا يتناسب مع قواى ومداركى يفيد المجتمع ويحمى بيتى من اوجاع الفقر والسقام . . .

ولو لم يصب والدى بالغطرسة العمياء التى أوحت اليه أن تعليم البنت مجلبة للفساد وأن عملها فى الحياة الخارجية إثم وبهتان . .

لو لم يصب بذاك الفكر السخيف لأستعنت على أنوثتى بقوتى وغالبت مطامعى المادية بمواهبى الروحيه لأؤدى عملى كامرأة ممتازه لها فى بناء هيكل الجيل الجديد يد قوية وفكر خصب وعاطفة نبيلة ،

اما واننى نشأت كما يروم ابى فلا أتحمل على مضض ذاك البلاء

ولنحتمل نتيجة الغرور والجهالة وظلم المجتمع فى صبر حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا .

لم يبق أمامنا سبيل إلى الخلاص من الموت الذى يقترب منا رويدا — رويدا — وأخيرا عاوده ابن أخيه الطبيب متأففا متذمرا من المتاعب التى كابدها فى طريقه، إذ كان منزلنا فى حى الفقراء، وبعد أن فحصه، وشخص الداء، وكتب له على الدواء، انصرف متمنيا له الشفاء فى جمود لا يقل عن قسوة الغرباء، وكان فى مقدوره ان يتكرم علينا بثمن الدواء ومظهر نا يدر الدمع من العين الجامدة لكنه ككل الناس لا يعنيه الا أمر نفسه

ترك لنا اسم الدواء، فمن أين لنا بثمنه؟؟.. نفذ كل ما كان لدينا من حلى ومتاع ولم يكن معى غير هدية ماسية كان أهدانيها الخطيب ولم يشأ أن يستردها وقد ابت أمى أن تبيعها من أجلى.. وقد اضطررت أن آخذها دون علمها وأخرج خفية متسللة لأبيعها فى السوق..

لا شك أننى كنت على أسوأ حال ولا شك أن منظرى يثير رحمة من استطاع ان يعرفنى ولشد ما كان يفزعنى مواجهة اى انسان اعرفه وان كنت اخفيت ذاتى برداء الرث

اخيرا بعت الحلية بثمن بخس واشتريت لأبى الدواء وعند خروجى من الصيدلة فاجأنى الأعرابى ولعله كان يتبعنى من حيث لا أدرى على أننى لم التفت اليه مطلقا وتجاهلته، إلا أنه استوقفنى قائلا .. اتبعينى..

فنظرت اليه شزرا كأننى أخافه وأجهله وتابعت خطاى..

فتقدم منى هامسا قائلا. سناء.. أريد أن اتحدث اليك لحظة

فقلت بصوت جاف ـ لست الفتاة التى تعنيها أيها السيد .

قال ـ عبثا تحاولين اخفاء نفسك . . لاتضيعى الوقت .

وهنا أحسست برحمته الكبرى تشملنى فتابعته فى صمت . .

قال ـ لقد اجهدنى البحث عن منزلكم فأين مقركم الآن ؟

قلت ـ حسبك ياسيدى مامرّ . . لقد ماتت سناء التى أحببتها . . سناء الجميلة الثرية . .

قال . . ما أحببت هذه أبدا . . لقد أحببت سناء النابهة الحساسة . وهى مازالت بين يدىّ .

قلت ـ أرجوك . . حسبى ما أعانى . .

فدمعت عيناه وقال: غدا ينقشع الضباب وتشرق شمسك فاطمئنى

فهززت رأسى فى يأس قاتل وجففت مدامعى فقال . . سيرى الى منزلك الآن . . فحولت ساقى فى طريقى دون أن أخاطبه . . وأظنه تبعنى من بعيد ليعرف دارى ولقد حاولت اكثر من مرة أن أضلله فى الطريق فلم أفلح لأنه كان جد حريص على متابعتى وقـــد اجهدنى السير المتواصل لضعف بنيتى حيث لم اذق الطعام إلا القليل التافه منذ ايام

وبعلم الله أننى كنت أريد ان أموت فى هذه اللحظة قبل ان يرى منزلنا الحقير الذى ينم عن بؤسنا وشقائنا وظللت طوال اليوم اترقبه وأنا أرجو الله ان يعوقه وأن يرحمنى فيقبض روحى قبل ان يحضر ويرانا على أسوأ حال من الفقر والبؤس والشقاء ـ لهف نفسى على مامر من أيامنا السعيدة

مضى اليوم وتلاه الثانى وعلة ابى تزداد إلى حد افزعنا وبينا نحن مغمورون فى الأسى والحزن جاءنا الأعرابى وبصحبته خمسة من أشهر الأطباء . فأدركت انه فهم بذكائه لما اشتريت الدواء ان ابى مريض او لعله اتصل بالصيدلى أو قد يكون سمع بذلك من المدينة حيث كان حديث الناس فى ذاك الحين . مأساة أبى وما حل بنا

لم يكذب من قال ، فى الشدائد تعرف الاخوان لكم اسدى أبى الى الناس معروفا ولكم بذل من نفسه وماله فى سبيل راحة غيره واليوم ينكره الناس حتى الذين انتشلهم من الفقر والفاقة تناسوه وتجاهلوه

دخل الأعرابى على أبى وعلى ثغره ابتسامة العطف الأكيد ولم يكد ابى يراه ويسمع صوته حتى دمعت عيناه وبعد ان حياه استأذنه لكى تفحصه الأطباء فلم يستطع ان يشكره لأن اللوعة عظمت فأخرست لسانه .

وتقدم كل طبيب يفحصه فى دقة وعناية وبعد ان انتهى الجميع من تشخيص الداء .. اجمعوا على أنه ضعف القلب وحمى فى المخ

ثم خرجوا وقد خرج معهم الأعرابى ولم يمر بعض لحظات حتى عاد ومعه حقيبة فيها كل ما أشاروا به من دواء وغذاء وأدوات لا يستغنى عنها المريض

لا يمكننى مطلقا ان أصور ما انتابنى من ألم ومرارة فى ذلك الوقت .

حزنت وفرحت ! ! . .

حزنت لأننى كنت ابتغى ألا يحتاج أبى لأى مخلوق مهما كان عزيزا على ، وفرحت لأن القدر بدأ يؤلف بين الأعرابى وبينه . . إذ صلة الملمات اقوى وامتن جميع الصلات .

ومن يدرى لعل الله فعل ذلك ليخضع أبى لمشيئته الساميه فيجمعنا على أن ابى لم يكن فى حالة تمكنه من ادراك ما يحوط به اذ قد فقد ادراكه منذ أيام وأصبح اشبه بالأعمى والأصم لايتكلم ولا يتحرك

ولم يحاول الأعرابى ان يتكلم معى بل حبس نفسه فى غرفة والدى وقام على رعايتـــه ليل نهار وقد تولى هو تمريضه ونظام تناول الدواء والغذاء

ولقد منعنا جميعا من تأدية أى عمل خاص به ولما حاولت ان اشاطره وحدى — على الأقل — قال : — حسبه انا والله معى فاطمئنى . وحاولى ان تشعرى والدتك دائما انه فى طريق التحسن ورفهى عنها اساها وساعديها على بث الطمأنينة فى نفوس الصغار

ولا أنكر اننى نسيت مرض والدى به وتحولت عنايتى بأبى الى العناية به فرحت انظم له الأكل واحاول جهد المستطاع ان اهيىء له أسباب الراحة . .

إنما شغلني وفرة المال الذي يصرفه إذ انه بذل من المال في سبيل مداواة ابي وفي جلب الحاجات لنا مالا يبذله غير الأغنياء.

وهو كما اعرف جمال بسيط فكيف تحصل على هذه الثروة الطائلة.

اخيراً بعد تفكير طويل ظننت انه لابد قد ادخر في ماضيه مالا وفيرا من عمله

شملنا جميعا الفرح وزال عنا الترح وحل الأمل مكان اليأس والألم - إذ تحسنت حالة ابي ولم يكد يمر الشهر حتى تماثل الى الشفاء واستعاد قوته ونشاطه وكان وجه الأعرابي اول وجه رآه وصوته أول صوت سمعه . . ولما عرف والدي مني المجهود العنيف الذي عاناه الأعرابي والمال الكثير الذي بذله في سخاء : دمعت عيناه واحتضنه كأنه يعلن له شكره الحار بحرارة قلبه في دموعه بدل الكلمات المألوفة .

وكأن الأعرابي ادى مهمته وانتهى منها بشفاء ابي فانقطع عن زيارتنا دون انذار بعد ان ترك تحت وسادته صكا ماليا بمبلغ الألف جنيه ومعه رسالة رقيقة يقول فيها .

والدي العزيز . .

ارجو ان تعتبر هذا المبلغ هدية كتحية بشفائك وان أبيت فليكن دينا عليك تعيده إلى بعد ان تستعيد مركزك التجاري

لاتبحث عنى فانني فى طريقى الى وطنى . .
سأذكرك واذكر اهلك فأذكرنى بسناء

ابنـــك
إلهـامى

ياوبح قلبى لم تركنى هكذا وشيكا . .
وهل يمكن ان اطيق الحياة بدونه بعدأن احببته . وهاهوابى ايضا يقبض على الصك بيد مرتعشة متسائلا . . ايمكن ان يكون فى الحياة انسان كهذا . .

وتقول امى . . عله جبريل تنزل عليك من أجلنا فى هيكل انسان .
ونحار جميعا فى تفهم حقيقة ذاك الرجل العجيب الطاهر وما يحمله من قلب كبير رحيم ملىء بالبر والحنان . .

اسرع ابى وذهب يبحث عنه فى كل مكان . . حتى اهتدى اليه فعانقه بحنان أكيد وحب وفير وكأن اعترافه بجميله تجسم فى ذاك العناق فلم يدعه إلا ليقول له : —
اتعود إلى وطنك دون سناء ؟ ؟ .

قال — عزيز على ان أتركها ولكننى ارجو ان تعيش على الصورة التى ترضاها انت . .
الوالد — واذا وهبتك إياها

الأعرابي — لو لم أحبها لرفضتها ، إذ اخشى ان تظن اننى اخلصت لك الود من اجلها . . وصمتا ليتكلم قلب كل منهما فى سكون وروعة

* * *

الفصل الرابع عشر

عقد قرانى فى حفل متواضع لأن الحادث علم ابى السخرية بمظاهر الحياة وأبهات الجاه ثم صحبنى زوجى (إلهامى) الى العرابة . بدعوى انه مضطر الى السفر هناك لقضاء بعض مآرب له على امل ان نعود الى بلدتنا ليشتغل بالتجارة مع ابى

وبعد ايام كنا فى صحراء العرابة وفى المكان الذى رآنى فيه اول مرة ثم ابتنى لنا كوخا متواضعا بيديه بعدأن جمع مطالبه من حصى الجبل ورمل الصحراء وسعف النخيل

وكان يخرج فى الصباح ويعود ظهرا لتناول الغداء وهو الذى يحضر بنفسه كل مطالبنا ولا يبيح لى الخروج من الكوخ ابداً إلا بصحبته وقلما فعل

وقد لاحظت انه بدأ يقتر فى معيشتنا تدريجيا ولكننى فسرت ذلك إلى انه يقتصد لكى نتمكن من الحياة الرغدة اذا عدنا الى

وطننا لذلك لم ار غضاضة فى ذلك التقتير واستعنت بحبى على توطيد حياتنا العائلية وبث روح الطمأنينة والمسرة فى معيشتنا ولقد استطعت ان اجعل من الكوخ شبه فردوس أرضى .

واذكر اننى مرضت وايقنت ان مرضى نتج من عدم وجود اسباب العيش الذى الفته بجوارى فى دار ابى بعد زواجى وفى ليلة هادئة عاتبته برفق وحنان قائلة : لم نحرم انفسنا من متاعنا الا تشعر بالتعب وانت تنام على هذا السرير الخشن (اقصد سريرنا الذى كنا ننام عليـــه وقد صنع من سعف النخيل ملتحفين بغطاء من وبر الماعز والأبل)

فقال ــ لقد تعمدت ان اترك متاعنا لأنه سيحتاج الى منزل يلائمه ولا اكتمك اننى انفقت كل ما لدى من مال ولم يعد معى اى درهم .

فصعقت وقلت ــ وكيف نعيش ؟ ؟ :

قال ــ جئت بك الى هنا لأنك غير معروفة ولكى لا تتألمين لحرمانك من حياة الترف الذى يحوط بك .. وليس فى مقدورى مطلقا ان احقق رغباتك هناك ــ اما هنا ــ فيمكننا ان نقنع بالكفاف ونتحمل حياة التقشف والحرمان . .

فلم أحزن لعلمى أنه بذله فى سبيلنا وقلت : لطالما تمنيت ياحبيبى ــ كوخا وقلبا ــ وها هى امنيتى تتحقق اذن حسبى قلبك وهو كفيلى

قال — ولكننى أخشى ان تتنبه غريزة المرأة فيك فتطمعين فيما تطمع فيه كل النساء من ألوان الرفاهية والنعيم فاسندت رأسى على صدره ونظرت اليه بعينين دامعتين من فرط الحب وقلت بشفتين مرتعشتين بحرارة الوجدان لنعش بالحب يا إلهامى لتثبت للعالم ان قوة الروح أجل من قوة البدن

فنظر إلى فى حنان قائلا : لتكن تجربة فان نجحنا أدينا رسالة الحب كاملة وإن فشلنا حسبنا المحاولة وطمأنينة الضمير

وبدأت منذ ذلك اليوم افكر فى تجديد حياتنا كل يوم فجملت الكوخ بالزهر والأغصان حتى جعلته كخميلة ناضرة أشبه بوكر طائرين اليفين

ووطنت النفس على الكفاح بجانبه الى نهاية حياتى غير عابئة بالتقاليد المرعية وحاولت جهدى ان أبث الطمأنينة فى صدر أبى ليطمئن أمى من آن لآن مصورة له فى حياتى كأنها مليئة بالرفاهية والسعادة والمتعة والنعيم

لكنه لم يشأ ان اخرج معه للعمل بجانبه بعد ان أفهمنى انه يشتغل فى الغابة مع القرويين وقال لى عندما رجوته — مكانك فى الدار — فان صعب عليك احتمال حياة الحرمان . . اذهبى الى أهلك لتنعمين بحياة الحرية والسعادة المرجوة . .

ومع إيلامى من حرمانى مشاركته الكفاح . . أسعدنى حرصه على كرامتى وانوثتى وغيرته على . . فازددت حبا وتعلقا به واعتقد انه لو سمح لى بالسعى معه طلبا الى الرزق . لفقدت لذة لا يعوضها رخاء الحياة . . تلك اللذة شعورى بأننى فى حاجة إلى حمايته ورعايته وانه اقوى منى وأشد سلطانا

وقد دفعنى تفكيرى لاسعاده إلى العمل فى دارى حريصة على تنفيذ أمره . فاتفقت مع جارة لى ان اشاركها فى صناعة السلات والأسرة مقابل اجر بسيط ونفذت ذلك بمهارة وحذر وكلما تجمع لدى مقدار من المال اشتريت به بعض الطيور والفاكهة وردداه له وآخر لى واذا سألنى من اين المال صارحته بالواقع فكان يغضب ويثور ثم أسترضيه فيهدأ ويستكين ويستحلفنى ألا اعود إلى مثل هذا العمل فأذعن ثم تدفعنى الحاجة الماسة الى العمل فأفعل فاذا اكتشف الأمر خاصمنى ، وخصامه اشد من القتل ، لأنه يحرمنى تدليلى وبث حبه وهو احب لدى من الحياة . على انه كان سريع الرضى إذا ناغيته واسترضيته

وكثيرا ما كان يوسوس الشيطان فى صدرى ويصور لى هذه الحياة جحيما لا يطاق فكنت الجأ الى الصلاة حتى اذا عاد من الخارج ارتميت بين ذراعيه لأدفن خواطرى فى صدره واستمد قوة القناعة والاكتفاء من معين حبه .

وفى الواقع كان حبه عزائى الوحيد — وأقسم — انى لم افكر مطلقا فى اى امنية مادية ولم تطمع نفسى فى اى شىء حتى الأشياء التى كنت احبها عفتها وكأننى زهدت الحياة بما فيها . وكنت احس دائما ان قوة معنوية تسمو بى على جناحيه الى السماء فأرى الأمن والقناعة والرضا فى شبه جواهر رصعت فى تاج وضع على رأسى يشيع ضوؤه على وجهه فى صورة رائعة باهرة احبها فى من اجله واحبها فيه من اجلى

وقد علمتنى هذه الحياة المتواضعة فلسفة جديدة انا التى لم ادرس الفلسفة (فى معهد او جامعة) فعرفت ان المـــادة ليست قيمتها فى الأرقام إنما فى استخدام هذه الأرقام فاذا استطعنا ان نكيف الحياة بأقل رقم ممكن . كانت الحياة فى ناظرينا رضية سعيدة واذا لم نستطع تكييف الحياة بأعظم مبلغ من المال — ضاقت الدنيا بنا وصعب علينا الحياة فيها

وأيقنت ايضا انه يمكن الاستغناء عن كل شىء فى الحياة ، عدا الماء والغذاء وما يستر العورة وهذه الضروريات اللازمة موجودة فى كل مكان ، لأن الله يكفل الحياة للجميع

* * *

قلت له ذات مساء ونحن نتسامر فى هدوء ونشوة حدثنى عن

بلاد (اليمن) كيف حال المرأة هناك وحال الرجل .. فأجابني في إيجاز أنا صورة صحيحة لكل رجل عربي ، والمرأة هناك عربية صميمة خلقت لبيتها وزوجها وأولادها

قلت — أحب ان تقص علي أقصوصة من أقاصيص هذه البلاد

قال — أيهمك هذا ؟

قلت — كيف لا يهمني معرفة وطن روحي .. فمسح شعري بأطراف انامله في رفق وشغف وحنان ونظر إلى في بشر واطمئنان ثم قال : سأقص عليك قصة واقعية فانتبهت بكليتي اليه وترقبت حديثه في لهفة

فبدأ يقول — منذ عام اعتزم أمير من أمراء اليمن ان يزوج ابنه الوحيد على ابنة عمه (صهباء) وذاك الأمير يتولى حكم إحدى جزائر العرب . في اليمن وهو أعظم الأمراء شأنا واوفرهم عزا .. وكان المفروض ان يفرح النبيل بذاك الزواج لما تمتاز به العروس من الجمال الباهر والذكاء النادر ولكنه اعرض ورفض ، ولما كانت مشيئة الأمير نافذة وأمره مطاع فقد حتم على ابنه بالاكراه تنفيذ رغبته . فأذعن النبيـــل كظيما خضوعا لمشيئة والده ومرت الأيام والجزيرة تتأهب للعرس حتى تمت المعدات وبدت الزينات في كل بيت ومتجر ومعهد وطريق .

وجيء بالعروس فى حفلة شائقة لم تشهد الجزيرة مثلها بين الحان الموسيقى حتى ملأت جنبات الوادى بأعذب أنغامها وذهب الرسول يدعو النبيل لاستقبال العروس كما تقضى المراسيم الملكية فلم يجده حيث كان مقرراً أن يكون وبحث عنه فى كل مكان ولكن عبثاً فر النبيل الى حيث لا يعلم والده او أهل قومه وبينما كان الأمير يفكر فى ذلك الأمر الجلل الخطير إذ سمع أزيز طائرة قريبة من نافذة غرفته فأطل برأسه يتأملها . . وقبل ان يرفع بصره سقطت عليه ورقة فتناولها وإذ بها رسالة من ولده يقول فيها

أبى العزيز

بدمى افدى امرك . . ولكننى اخاف ان أقتل نفسى فلا تجد لك فى الحياة عزاء ولا خلفا يذكرك ويترحم عليك . .

لا يمكننى مطلقا ان اتزوج بفتاة لا احبها . تركت البلاد قانعا بحياة الكفاف فى صحراء مجهولة وأدعو ربى ان يبارك فى حياتك بقدر ما أرجوه لك من خير وهناء

لا تحزن على . فسأكون اول جنـــدى يهرع الى جيشك اذا احتجت الى المعونة ، وزوج الفتاة بمن يحبها لتسعد . اما انا فسأكون بلاء عليها . أبى اركع تحت أقدامك طالبا العفو والرضا

ابنك

الهامى عبد العزيز

وما كاد ينتهى من قصته حتى غمرتنى الدموع فقلت .. وارحمتاه للعروس المنكودة الحظ. وارحمتاه له

قال — اتراه على حق فيما فعل ؟

قلت — اجل . . خير له ان يعيش محروما من ان يزوجوه بفتاة لا يحبها ويحس بالعذاب فى قربها . .

فأطرق برأسه مليا ثم تمتم : . لاشك انه سعيد

قلت — والعروس ماذا فعلت ؟ ؟ .

قال — علمت انها انتحرت لأنها كانت تحبه

فقلت — كأنك تعرفها

قال — قرأت عنها .

قلت وانا اخفى وجهى بيدى من هول الخيال . . رحمها الله ماتت شهيدة . . جمعها الله به فى فردوس الآخره

وهنا قام فى هدوء وخرج لشأن له فاضطجعت ورحت اتخيل مواقف هذه القصة . كأنها لمحة من لمحات حقيقة المستها ، ولا اذكر ان خيالى تعلق بحديث ورسمه فى وضوح كما فعل بهذه القصة

ومرت الأيام دون ان انسى هذه الرواية وكثيرا ما عدت اليها كلما خلوت به فكان ينتقل بى الى حديث آخر فى لباقة وكياسه . .

• • •

نسيت كل متعة فى الوجود تشتهيها المرأة المادية ولم أعد افكر إلا فيما يعود علينا بربح روحى جليل حتى دخل على يوما منطلق الوجه يغنى بصوت هادىء جميل

ياحبيب القلب اقبل　　نشكر المولى القدير
قد منحنا الحب يرفل　　فى حمى السعد الوفير

• • •

ياحبيبي خذ ودعنى　　أرشف الصفو الجميل
من حنان ليس يفنى　　أصله نبع جليـــل

• • •

قد بلانا الفقر قسرا　　فسقانا الحب عطرا
وحسبنا اليوم دهرا　　فاذا بالدهر شـهرا

• • •

كان يغنى وهو يعانقنى ثم يضع أواخر أنغامه بفمى فى قبلة . ولما لمح الدهشة بادية على وجهى أجلسنى على ركبتيه وابتسم وهو يقول :

لقد جئت اليك بهدية عظيمة ثم ترك الغـــرفة وعاد توا يحمل صندوقا كبيرا قائلا : افتحى هذا بيديك لترى حظك ! ! .

خفت أن تكون ألعوبه فترددت واحجمت . . فأقسم بحبي أنه لايوجد بداخله ما يخيف وتقدم يساعدني على فتحه

بهرت لما رأيت ، وكذبت نظري . . ولكي اتأكدمن أن هذه الأشياء حقيقة تحسستها . . إذ ظننني في حلم عميق خلاب

من أين له هذه الحلى النفيسة التي تقدر بألاف الجنيهات . . ونظرت اليه في شك فلم يتكلم وتركني لحظة ثم عاد يحمل معه صندوقا آخر قائلا في هدوء واتزان ، افتحي هذا ايضا . . فاختلجت أنفاسي واضطربت أعصابي وتاه بصري فيما أرى . . ولما فتحه وعرض على ما بداخله ازددت ريبة وقلقا وخوفا .

ملابس ثمينة فاخرة كأنها صبغت من أجلي أنا إذ كانت تناسب جسمي.

لذا انتابني شعور عميق خليط من الخوف والقلق والفرح وفي الواقع الشعور لا يتغير ولا يتبدل ، إنما نحن الذي نكيفه حسب تفكيرنا وخواطرنا فيأخذ لونها ويلبس لبوسها

فالذهول الذي ينتاب الانسان وقت الترح هو بعينه الشعور الذي ينتابه وقت الفرح انما الحادث هو الذي يصبغه بلونه ويكيفه حسب هواه .

قلت له بفرح يصبغه الشك بلون الحزن : من أين لك هذا ؟ فلم يتكلم .

قلت — لاتقتلنى بالصمت وتكلم لتطمئننى

فلزم السكوت وأطرق برأسه مفكرا . . فحملنى صمته على التفكير وقد دار بخلدى ان يده امتدت إلى إحدى الخزائن فى ساعة يأس غير مشروعة ولكن صعب على ان اتخيل كيف استطاع الوصول الى (سراى أمير أو عظيم) إذ لا يمكن ان تكون هذه الجواهر إلا للملكات والأميرات

وجسم الشك فى خاطرى غيابه عنى ليلة الأمس وكان عذره سفره الى ضاحية قريبة ليعزى صديقا له مات والده ، ولم يدر بخلدى مطلقا انه يكذب على لأنه عودنى الصدق والصراحة منذ تزوجنا حتى هذه اللحظة

ولقد أزعجنى صمته الطويل حتى أيقنت ان الخجل عقد لسانه وان ضميره تنبه لمحاسبته فى هذا الوقت لذا ازددت قلقا وخوفا وحزنا ولم أشعر إلا وانا راكعة تحت اقدامه استحلفه بخالق السماوات والأرض قائلة بصوت تخنقه العبرات : — اصدقنى وقل الحقيقة ولو كان فيها هلاكك وهلاكى

فنظر إلى وحرك شفتيه ليتكلم ثم صمت كأنه يهاب مصارحتى فازددت ضجرا وأردفت : (إلهامى) لقد رضينا بالقناعة والحب دينا إننى نفسك فهل تخجل من مصارحة نفسك بما أقدمت عليه يداك ؟

وخير لك أن تضحى بدمى فى سبيل شرفك بدل أن تهتك كرامتك فى سبيلى

أخـــيرا

فى مثل هذا اليوم من العام التالى احتفلت البلاد بعيد جلوس الأمير « إلهامى » ولقد شاركت الشعب بعواطفى وآمالى إذ ظللت وال العام أشرف على حياكة الملابس واعداد ما يملأ حياة الفقراء المعوزين بهجة ورضى . .

وفى هذا اليوم وزعت عليهم بيدى كل ما وفقنى الله اليه من منح وعطايا . حتى أحسست ان بهجة العالمين تملأ صدرى ونور الله يكمن فى قلبى — أى والله ، ماشعرت بالسعادة الروحية كما شعرت بها فى هذه اللحظة وأنا ألمح دموع الفقراء تنهمر من فرط الفرح . ولا شك أن سعادة الانسان فى إسعاد غيره ! ! . .

أما الأمير فقد وقف بين جماهير العظماء والوجهاء خطيبا يعلن فى صراحه وعزم واجب هؤلاء جميعا نحو بلادهم ويحثهم على التعاون والتآلف والتآزر ، مراعاة مصلحة الفرد إذ بتدعيم المصلحة العامة تتهيأ أسباب الأمن والرفاهية ويختتم كلامه بقوله . وأنا لا أعنى نفسى فى معاونتكم وأضع ذاتى وروحى فى مقدمة العاملين الباذلين كل ما يملكون من مال وقوة فى سبيل إسعاد الوطن العزيز

تظهر قريبا

راعيـــة الغنم

وقصص أخرى

أقاصيص الانسانية بما فيها من مرح
وترح وباطل وحق ورذيلة وفضيلة
جمعتها من دموع الناس وبسماتهم
وصغتها من المآسى والمسرات ومنها
سحلت هذه الحقائق التى جمعت
تلك الاقاصيص

جميل الغطربلى